christianlib.com

كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
سبورتنج - الإسكندرية

برهان الملكوت

رحلة طبيب إلى الحياة الأخرى

www.christianlib.com

تأليف
د. إبين ألكسندر

ترجمة
إنجي بهجت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
سبوتنج – الإسكندرية
أسرة القديس ديديموس الضرير
للدراسات الكنسية

برهان الملكوت

رحلة طبيب إلى الحياة الأخرى

تأليف

د. إبين ألكساندر

ترجمة
إنجي بهجت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الكتـــاب : برهان الملكوت
المؤلـــف : د. إبين ألكساندر
الترجمـــة : إنجي بهجت
م. النـــص : داليا ممدوح
الإعـــداد : مراد مجدي
النـــاشـــر : كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج
الطبعـــة : الأولى – يناير ٢٠١٥
رقم الايداع: 2015 / 3708
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 392 - 231 - 0
المطبعة : دار الراعى الصالح للطباعة والتوريدات
ت:٠١٢٢٣٦٤٨١٠٧

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

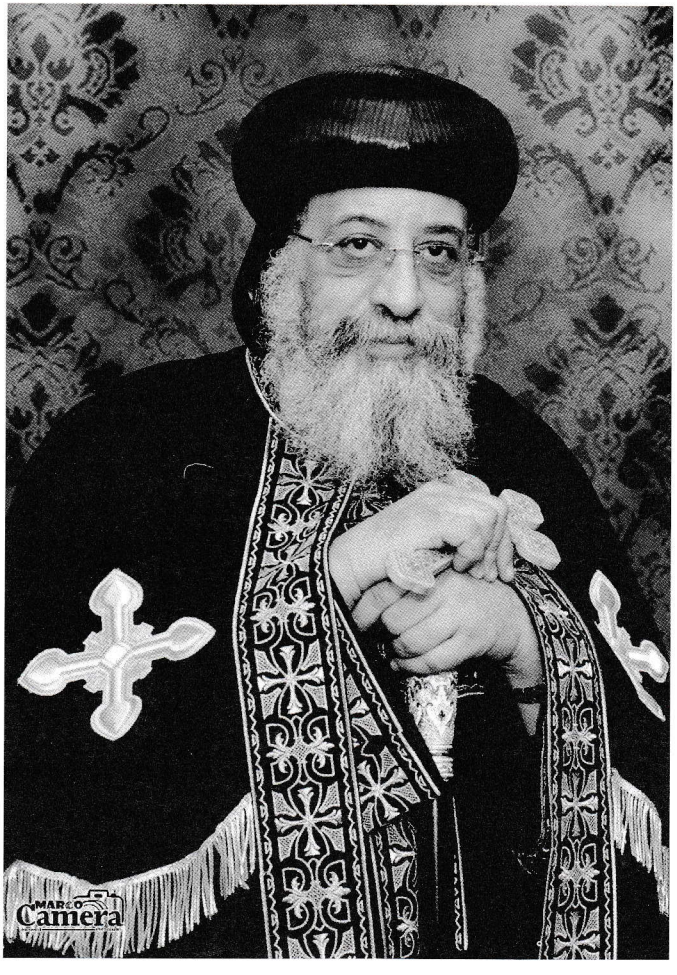

حضرة صاحب القداسة

البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٨

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مُقدِّمة الناشر

مع هبوب رياح الفكر الإلحادي وسط مجتمعاتنا، وهي موجة إلحادية تتخذ العلم ذريعة لتحاول ادعاء غياب الإله وإن كل ما نحياه ما هو إلا نتاج تفاعلات كيميائية وفيزيائية مختلفة، وبالتالي يصبح الإنسان مجرد جسد بيولوجي ينقضي بمجرد توقف هذا الجسد عن العمل.

من هنا آثرنا ترجمة هذا الكتاب الهام الذي يروي اختبار طبيب وأستاذ جامعي مرموق متخصص في مجال المخ والأعصاب قد اجتاز تجربة الدخول في غيبوبة عميقة نتيجة إصابته بفيروس الإيكولاي، ولكنه عاد من الغيبوبة ليروي ما اختبره من رؤيا في فترة تلك الغيبوبة.

وما يجعل هذا الكتاب هامًا، ليس فقط كون كاتبه عالم وطبيب، ولكنه أيضًا كان شخصًا شبه ملحد لا يؤمن بمعظم العقائد الدينية المتعلقة بوجود الروح وبالحياة بعد الموت وما إلى ذلك، لكنه عاد بعد الاختبار يبشر بأن الكون المرئي الذي ندركه بحواسنا الخمسة ليس هو كل شيء في الوجود.

جدير بالملاحظة أن المؤلف هو شخص لا يتمتع بثقافة مسيحية واسعة، فنحن لسنا أمام كاتب يسطر لنا كتابًا في فرع من أفرع المعرفة المسيحية، بل نحن أمام شهادة عالم من علماء الطب عن اختبار شخصي قد اجتازه، لذلك فمن الطبيعي أن بعض مما ورد في الكتاب من أفكار أو استنتاجات خاصة بالمؤلف لا تتوافق بالضرورة مع إيماننا الأرثوذكسي القويم. فمن الضروري جدًا أن نفهم طبيعة هذا الكتاب والهدف من نشره حتى نستطيع أن نستفيد منه، سواء على المستوى الشخصي أو في مجالات الخدمة المختلفة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ورغم بساطة الرؤيا التي شاهدها د. أبين بالمقارنة باختبارات أخرى لآخرين حول العالم، إلا أن اختباره يمتاز بمزج ما هو علمي مع ما هو شخصي أو اختباري، ويمكننا فهم الطرح الذي يقدمه هنا ببساطة ومنطقية شديدة، فكأنه يقول: ما دمت قد امتلكت وعيًا ذاتيًا في ظل حالة طبية يستحيل معها علميًا امتلاك مثل هذا الوعي، إذًا فمصدر هذا الوعي ليس بيولوجيًا نابعًا من خلايا الجسد، بل من مصدر آخر أكثر سموًا وعظمة.

لقد صاغ د. أبين اختباره في هذا الكتاب وهو يوجهه بوضوح لفئة من الناس بعيدة كل البُعد عن الأديان وعن الاعتقاد بوجود إله من الأساس، لذلك نلاحظ في كتابه الآتي:

١- التركيز على هدف واضح ومحدد يحاول برهنته، وهو إثبات أن هناك ما هو أبعد من العالم المادي الذي نشاهده في هذا الكون، وأن المعامل والمختبرات العلمية مهما تطورت لا يمكنها الانفتاح على العالم الروحي الأكثر سموًا من كل ما هو مادي.

٢- محاولة استخدام منهجية علمية في شرح وتحليل اختباره، لذا نجده يستفيض أحيانًا في تقديم شروحات طبية لحالته المرضية لتقديم الدليل العلمي الذي يدعم تحليله للموضوع.

٣- تجنب استخدام تعبيرات أو مصطلحات دينية بصفة عامة ومسيحية بصفة خاصة لكي لا يتحول كتابه إلى كتاب ديني، وهو ما يراه المؤلف قد يعطل وصول الفكرة لغير المتدينين، لذلك نجده يستخدم مصلحات كودية ليصف بها ما يريد، فنجده مثلاً يستخدم تعبير "OM" لوصف الله، وتعبير " الكائنات الفوقية" لوصف الملائكة، كما أنه يصف السماء بأنها "المركز"، ويصف الروح الإنسانية بأنها "الوعي".

وقد تحمسنا لترجمة ونشر هذا الكتاب لعدة أسباب، أهمها:

١- لأنه يقدم صورة مختلفة عما هو سائد لدى الكثيرين من أن الغرب قد اتجه كاملًا إلى الإلحاد، وأن الإيمان لا يوجد إلا في الشرق حيث الجهل والتخلف.

٢- لأنه شهادة رجل علم وليست مجرد اختبار لشخص طبيعي يمكن اتهامه بالسذاجة أو البساطة الزائدة، وما يجعل الأمر مشوقًا أن مرضه كان في ذات تخصصه الطبي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٣- أن صاحب الاختبار شخص له فكر إلحادي، وبالتالي فهو اختبار من شخص من الفريق الآخر إن جاز لنا استخدام هذا التعبير.

٤- إدراكنا أن هناك قطاع ليس قليل من المُتشككين يحتاج – إلى جوار النقاشات المنطقية والبراهين العقلية- مثل هذا النوع من الاختبارات لكي يتثبت إيمانه، لذا فعلى قدر ما قد يرى البعض أن هذا الكتاب هو قليل النفع للمؤمنين الثابتين في الكنيسة، فنحن نراه عظيم الفائدة لهؤلاء البعيدين.

أسرة القديس

ديديموس الضرير للدراسات الكنسية

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مقدمة

ينبغي أن ينظر الإنسان إلى ما هو كائن،
وليس إلى ما ينبغي أن يكون.
ألبرت أينشتاين (١٨٧٩- ١٩٥٥)

عندما كنت طفلاً صغيرًا، كنت دائمًا ما أحلم بالطيران. وفي معظم الأوقات، حين كنت أقف ليلاً في فناء منزلي، وأرفع عيناي إلى السماء وأتأمل النجوم، سرعان ما كُنت أجد نفسي وكأني أسبح في الهواء، أرتفع رويدًا رويدًا نحو السماء. فإذا قاطع خيالي مثيرٌ، كنت أشعُر وكأني أهبط بسرعة إلى الأرض. ولكن متى أُطلق لخيالي العنان، كنت أنطلق، وأُحلِّق، وأرتفع نحو السماء المُرصعة بالنجوم.

ربما كانت هذه الأحلام والتخيلات - عندما كبرت قليلاً - هي سبب عشقي للطائرات والصواريخ وكل ما يمكنه أن يرفعني إلى ذاك العالم الفوقي. فعندما كنت أسافر مع عائلتي بالطائرة، كنت ألصق وجهي طوال الوقت بشباك الطائرة منذ إقلاعها وحتى الهبوط. وفي صيف عام ١٩٦٨، عندما كنت في الرابعة عشر من عمري، أنفقت كل المال الذي جمعته من جز العشب في دروس الطيران الشراعي، التي كنت آخذها مع شخص يُدعى "جاس ستريت" في "ستروبيري هيل"، بمطار صغير غرب "وينستون"- "سيلم"، بشمال "كارولينا" مدينتي. وما زلت أتذكر جيدًا خفقان قلبي وأنا أجذب ذاك المقبض الأحمر الكبير الذي كان يفصلني عن طائرة السحب، فأبدأ بالتحليق بطائرتي نحو الحقل. وحينها فقط كنت أشعر بأني حرٌ طليق. ذاك الشعور الذي ينتاب معظم أصدقائي عند قيادتهم للسيارات، لكن بالنسبة لي، يكون أكثر إثارة، عندما أكون في طائرة شراعية على ارتفاع ألف قدم.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في السبعينات حين كنت في الجامعة، انضممت لفريق جامعة شمال "كارولينا" للقفز بالمظلات. كانت قفزتي الأولى مُرعبة، والثانية أكثر رعبًا. لكن مع قفزتي الثانية عشر، عندما خطوت خارج باب الطائرة لأسقط لأكثر من ألف قدم قبل أن أفتح المظلة، شعرت أنني أَلِفت هذا جدًا. قفزت ٣٦٥ مرة بالمظلة في الجامعة. وسجَّلت أكثر من ثلاث ساعات ونصف من السقوط الحر، معظمها في تشكيلات جماعية تصل إلى خمس وعشرين عضوًا. ومع إنني توقفت عن القفز عام ١٩٧٦، إلا إنني ظللت أتذكر هذا الشعور المثير. كانت أفضل القفزات تلك التي أقوم بها في المساء، حيث تختبئ الشمس وراء الأفُق. فأشعر بقرب ما لم أتخيل أن أقترب منه يومًا. كنا نقفز في تشكيلات من خمس أو ست أفراد، وأحيانًا عشر أو اثني عشر شخصًا في المرة الواحدة، وكلما كان التشكيل أكبر وأصعب كلما زادت الإثارة والمتعة.

في سبت خريفي جميل عام ١٩٧٥، انضممت أنا وباقي قافزي جامعة شمال "كارولينا" إلى بعض أصدقائنا من مركز القفز بالمظلات بشرق ولاية شمال "كارولينا" لنقوم ببعض التشكيلات. وفي قفزتنا قبل الأخيرة لهذا اليوم، من طائرة "بيتش" على ارتفاع عشرة آلاف قدم ونصف، تمكننا من أن نقوم بتشكيل من عشرة أفراد قبل أن نقطع سبعة آلاف قدم، وبذلك تمكننا من الاستمتاع بثماني عشر ثانية من التحليق، قبل أن ننفصل عند ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ونبتعد عن بعضنا البعض ليفتح كلٌّ منَّا مظلته.

عندما وصلنا إلى الأرض، كانت الشمس قد غابت. لكننا أسرعنا داخل طائرة أخرى لنقوم بقفزة أخيرة في الغروب. في هذه القفزة، كان معنا عضوان صغيران يقومان لأول مرة بالانضمام إلى التشكيل من الخارج بدلاً من أن يقوما بالدور الأسهل والذي يقتصر على السقوط بشكل مستقيم إلى أسفل بينما يتحرك نحوهما الآخرون. كان الأمر مشوقًا لهما جدًا، بل ولنا أيضًا، لأننا كنّا نضم للفريق، قافزَين جديدين لنقوم بتشكيلات أكبر.

تم الاتفاق على تشكيل نجمة من ستة رجال أعلى ممرات مطار صغير خارج "روانوك رابيدز" بشمال "كارولينا". كان أمامي مباشرةً شاب يُدعى "تشك"، وهو ذو خبرة بتكوين

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تشكيلات السقوط الحر. ولأنني سأقفز من الطائرة بعد "تشك" بثواني، كان عليَّ أن أنزل برأسي كالصاروخ إلى أسفل مباشرةً لمدة سبع ثواني، بسرعة مائة ميل في الساعة أسرع من أصدقائي حتى ألحق بهم بعد أن يكونوا قد كوَّنوا التشكيل المبدئي.

كان الإجراء الطبيعي في تشكيلات السقوط الحر، أن يبدأ القافزين في الانفصال عن التشكيل عند ارتفاع ثلاثة آلاف قدم. عندها يلوح كل واحد بيده مشيرًا إلى أنه أوشك أن يفتح مظلته، ويتأكد من عدم وجود أي فرد من أفراد التشكيل فوقه، ثم يسحب حبل فتح المظلة. ويبدأ تدريجيًا في هبوط آمن.

قفز أول أربعة أعضاء ثم "تشك"، وأنا تبعته غاطسًا برأسي محققًا السرعة المطلوبة، سعدّت عندما رأيت الشمس تغرُب للمرة الثانية في ذلك اليوم. ثم بدأت في تقليل سرعتي بفرد ذراعيَّ، إذ كنا نرتدي أجنحة من القماش من المعصم إلى الفخذ ذات أجراس في نهايتها لتقليل السرعة. ولكن للأسف، لم تسر الأمور على ما يرام.

أثناء توجهي نحو التشكيل لكي أنضم إليه بحسب ما نويت، رأيت أحد العضوين الجديدين الذي أرهبه سقوطه بين السُّحب بسرعة مئتي قدم في الثانية نحو الأرض وقد بدت مظلمة. شاهدته يتجه نحو التشكيل لا بالسرعة المألوفة، بل بسرعة هائلة. فاصطدم بهم، وفرَّق الجميع. وبدأ أعضاء التشكيل الخمسة يسقطون بلا تحكُّم.

كانوا قريبين جدًا بعضهم من بعض. وهذا وضع كارثي. إذ يترك القافز وراءه تيارًا عنيفًا جدًا من الهواء ذو الضغط المنخفض، الذي إذا دخله قافز آخر، تزداد سرعته جداً وقد يصطدم بمن تحته. وذلك بدوره يجعل كلاهما يزدادان في السرعة ويصطدمان بمن قد يكون تحتهما. باختصار، إن هذا هو الطريق إلى الكارثة.

قُمت بتوجيه جسمي وابتعدت عن تجمعهم لأجنب نفسي فوضى السقوط. وناورت حتى صرت فوق تلك البقعة، المتفق أن نفتح فوقها مظلاتنا لهبوط متمهل في دقيقتين.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

نظرت وشعرت بالراحة عندما رأيت القافزين الذين كان قد أصابهم الارتباك بدأوا هم أيضًا في الابتعاد عن بعضهم البعض، مُبدِّدين الكتلة المُميتة.

كان "تشك" بينهم. ولكني فوجئت به قادمًا نحوي مباشرةً. بل وتوقف تحتي تمامًا. لابد أنه لا يراني. هذا ما جال بفكري قبل أن تخرج مظلته المُلونة من حقيبة ظهره. فتح "تشك" مظلته، فاصطدمت بهواء سرعته مئة وعشرين متراً في الساعة موجهة إياه نحوي تمامًا.

مُنذ اللحظة التي رأيت فيها مظلة "تشك" تخرج من حقيبتها، كان أمامي جزء من الثانية لأتصرف. وإلا فقد أتعثر في مظلته التي ستغطي "تشك" نفسه. أو قد اصطدم بذراعه أو ساقه في مثل هذه السرعة، فأخلعهما، معانيًا أنا نفسي من ضربة مميتة أثناء ذلك. أو قد اصطدم به مباشرةً، فينفجر كلانا.

جعلت ذراعي إلى جانبي ووجهت جسمي باستقامة للسقوط بالرأس، مع انحناء بسيط جدًا عند الحقوين. الوضعية الرأسية منحتني سرعة متزايدة، والانحناء سمح لجسمي أن يتحرك أُفقيًا مسافات قليلة في البداية ثم كبيرة بعد ذلك. حيث صار جسمي كجناح فعّال، دفعني لأتجاوز "تشك" لأسبق مظلته الملونة التي كادت تنفتح.

تجاوزته بسرعة تفوق مئة وخمسين ميل في الساعة، أي مئتين وعشرين قدم في الثانية. لذا لم أكن واثقًا إنه تمكن من أن يرى ملامح وجهي المملوءة بالذهول. لقد استطعت أن أتصرف - في أجزاء من الثانية- في موقف، لو كان لدي الوقت لأدرسه، لما استطعت أن أتعامل معه. فالعقل يُظهر قدراته الخارقة عندما يُوضع في موقف يتطلب هذا. هكذا تعاملت معه، وهبط كلانا بسلام إلى الأرض.

كيف فعلت ذلك؟!.. سؤال حاولت أن أجد له إجابة من خلال عملي الأكاديمي لأكثر من عشرين عامًا كجراح مخ وأعصاب، أدرس كيف يعمل هذا الجهاز الدقيق،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وأُجري أدق العمليات الجراحية به. ولكن، لم يَقدني هذا كله لإجابة شافية. فنسبت ما حدث إلى قدرات استثنائية يتمتع بها العقل، تفوق ما أدرسه أو أعرفه عنه.

الآن فقط، أدركت أن لهذا السؤال إجابة أعمق بكثير مما كنت أبحث فيه. ولكن، لكي أدرك هذه الإجابة، كان عليَّ أن أتجرَّد من كل ما هو مادي وعقلي. فقد حدث في حياتي ما غيَّر من طريقة تفكيري، فأقنعني أنه بالرغم من قدرات العقل الفائقة، إلا أنه لم يكن هو ما أنقذ حياتي في ذلك اليوم على الإطلاق. فما فعلته في ذلك اليوم، لم يكن وراءه العقل أو الجسد لأنهما قاصران وحدهما عن اتيان هذا، بل كان شيئًا ما داخلي استطاع أن يتصرف بهذه بسرعة لأنه ليس ماديًا كما هو الحال في العقل والجسد.

في الحقيقة، هذا الشيء الداخلي هو نفسه ما كان يجعلني أحن للسماء وأنا صغير. فهو شيء عميق داخلنا، بقدرٍ يصعب معه الإيمان به بسهولة. لكنني الآن أؤمن به، والصفحات التالية ستخبرك بالسبب.

البداية

أنا جراح مخ وأعصاب، تخرجت من جامعة شمال "كارولينا" في "شابل هيل" عام ١٩٧٦. تخصَّصت في الكيمياء، كما درست بجامعة "دوك" عام ١٩٨٠. وخلال الإحدى عشرة سنة التي درست فيها الطب وتدربت فيها في "دوك" وفي مستشفى ماساتشوستس العام وفي "هارفارد"، قمت بالتركيز على علم التفاعل العصبي للغدد الصماء، الذي يتناول التفاعلات بين الجهاز العصبي والغدد الصماء وهى مجموعة من الغدد التي تفرز هرمونات تقوم بتوجيه معظم أنشطة الجسم. كما أمضيت سنتين، أبحث في التداعيات السلبية على الأوعية الدموية للمخ، عندما يحدث بها نزيف نتيجة ما يُسمى بالأنورسما أي التمدد بالأوعية الدموية، وهو ما يُعرف بالتشنج الوعائي المُخي.

بعد أن أنهيت الزمالة في قسم جراحة الأعصاب للأوعية المخيِّة في "نيوكاسل تاين" بالمملكة المتحدة، أمضيت خمسة عشر عامًا في كلية الطب بجامعة هارفارد كأستاذ

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مساعد في الجراحة، متخصص في جراحة المخ والأعصاب. خلال تلك الفترة أجريت جراحات عدة، لحالات معظمها حرجة وتهدد الحياة.

اشتملت معظم أبحاثي على تلك التقنيات الطبية الحديثة مثل الجراحة الإشعاعية، وهي تقنية تسمح للجراحين بتوجيه الإشعاع بشكل مباشر إلى مناطق عميقة في المخ دون تأثير على المناطق المجاورة. كما ساهمتُ في تطوير العلاجات التي تعتمد على الرنين المغناطيسي لعلاج الحالات المخية الحرجة مثل الأورام واضطرابات الأوعية. كما ألَّفتُ وشاركتُ في تأليف أكثر من مئة وخمسين فصل وبحث لمجلات طبية. وقدمتُ اكتشافاتي في أكثر من مئتي مؤتمر طبي حول العالم.

باختصار، كرست نفسي للعلم. مُستخدمًا سُبل الطب الحديث لمساعدة وعلاج الناس. وكانت كل أمنيتي في الحياة هي أن أعرف المزيد والمزيد عن جسم ومخ الإنسان. كنت أشعر بأنني محظوظ جدًا عندما كنت أحقق تلك الأمنية. وبينما كنت متزوج من عملي في كثير من الجوانب، إلا أنني لم أهمل عائلتي، التي كنت أعتبرها النعمة العظيمة الأخرى في حياتي. فقد كان لدي زوجة جميلة وطفلين رائعين. حقًا كنت رجلاً محظوظًا في أمور كثيرة، وكنت أعلم ذلك.

لكن، في العاشر من نوفمبر عام ٢٠٠٨، حيث كنت في الرابعة والخمسين من عمري، بدأ الحظ يفارقني. إذ أصابني مرض نادر أدخلني في غيبوبة لمدة سبعة أيام، توقف فيهم الجزء الخارجي من المخ عن العمل تمامًا.

عندما يتوقف المخ عن العمل، يصير الإنسان أيضًا غائبًا. وخلال فترة عملي كجراح مخ وأعصاب، سمعت العديد من قصص المرضى - عند إصابتهم بسكتة قلبية عادةً - عن سفرهم لمناطق طبيعية غريبة ورائعة، وعن تحدثهم إلى موتاهم، وحتى عن مقابلتهم لله نفسه.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لاشك أنها أمور رائعة، لكنها في نظري لم تكن سوى خيال لمرضى. فماذا يكون وراء خبرات العالم الآخر تلك التي يتحدث عنها هؤلاء؟! لم أدّع المعرفة، لكنني أدركت أن إصابة العقل كانت وراءها. فمن يتأذى عقله، لا يمكن أن يكون واعيًا. فمعظم هذه الخبرات حدثت لأشخاص توقف قلبهم لوهلة. فتوقف السطح الخارجي للمخ عن العمل بشكل مؤقت، لكنه لم يتلف تمامًا، بشرط إنعاش القلب والرئتين بتدفق الدم المؤكسد فيهما خلال أربع دقائق. لكن في حالتي، كان السطح الخارجي للمخ قد تلف فعلاً. كنت أواجه عالم من اللاوعي التام.

هذا لأن المخ هو الآلة التي تنتج الوعي. عندما تتعطل هذه الآلة، يتوقف الوعي. فبالرغم من قدرات العقل اللانهائية، إلا أن الأمر في جوهره بسيط. اسحب القابس فينطفئ التلفاز، انتهى العرض بغض النظر عن مقدار استمتاعك به، أو هذا هو ما كنت أعتقد فيه قبل أن يتعطل عقلي أنا شخصيًا.

كانت تجربتي تجربة عودة من الموت حقيقية. وكجراح مخ وأعصاب متمرس ومتمرن، فأنا أُقدِّر من يحكم على حقيقة ودلالات ما حدث لي. وقد أظهرت لي تجربتي أن موت الجسد والعقل ليس هو النهاية، فالتجربة الإنسانية تستمر إلى ما وراء القبر. والأهم، أنها تستمر تحت رعاية إله يحب كل إنسان ويهتم به، بل ويهتم بالكون نفسه وما فيه من مخلوقات.

المكان الذي ذهبت إليه بعد الموت كان مكانًا حقيقيًا. لدرجة تجعل الحياة التي نعيشها الآن، تبدو وكأنها حلم إذا ما قورنت به. لكن، ذلك لا يعني أنني لا أُقدر قيمة الحياة التي أعيشها الآن. بل، في الحقيقة، أُقدرها الآن أكثر مما قبل. وذلك لأنني أراها الآن على حقيقتها. فالحياة ليست بلا معنى. لكننا عادة لا ندرك قيمتها.

ما حدث لي في الغيبوبة هو بلا شك أهم قصة سأرويها على الإطلاق. فبمجرد أن أدركت الحقيقة التي وراءها، عَلمت أنه ينبغي علي أن أرويها، فصارت هذه هي رسالتي الأساسية في الحياة. لا أعني بذلك أنني قد تخليت عن عملي كطبيب وجراح. بل لأنني

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الآن أدركت أن حياتنا لا تنتهي بموت الجسد أو العقل، فأنا أراه واجبي، ورسالتي، أن أُخبر الناس بما رأيت وراء هذا الجسد وهذه الأرض. وأنا شغوف بشكل خاص أن أروي قصتي لمن قد سمعوا من قبل قصصًا مشابهة لقصتي وأرادوا تصديقها، لكن لم يتمكنوا من ذلك تمامًا. هي قصة غريبة لأنها ليست معتادة. أُحلِّل فيها ما حدث لي تحليلاً طبيًا أُطبق فيه كل ما عرفت وما درست.

أوجه هذا الكتاب وما يحمله من رسالة إلى هؤلاء، أكثر من أي أحد آخر. وما لدي لأخبرهم به هو مهم وحقيقي للغاية.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١. الألَّم

لينشبرج، فيرجينيا- ١٠ نوفمبر ٢٠٠٨

فتحت عينيَّ في ذلك اليوم لتخترقا ظلمة غرفة نومنا، وركزت على ذاك الضوء الأحمر المنبعث من الساعة التي بجانب السرير، إنها الرابعة والنصف صباحًا- قبل موعد استيقاظي المعتاد بساعة، حيث أقود سيارتي لمدة سبعين دقيقة من بيتنا في "لينشبرج" بـ"فيرجينيا"، إلى عملي في مؤسسة الجراحة بالموجات فوق الصوتية في "شارلوتفيل". كانت زوجتي، "هولي"، لاتزال نائمة نومًا عميقًا.

كنت قد انتقلت مع "هولي" وباقي عائلتي إلى "فيرجينيا" الجبلية قبل سنتين في عام ٢٠٠٦، بعد أن أمضيت ما يقرب من عشرين سنة في جراحة الأعصاب الأكاديمية في منطقة "بوسطن".

تقابلت أنا و"هولي" في أكتوبر ١٩٧٧. كانت "هولي" تقوم بتحضير الماجستير في الفنون الجميلة، وأنا كنت أدرس في كلية الطب. تزوجنا في يونيو ١٩٨٠ بكنيسة القديس توما الأسقفية في "ويندسور"، بشمال "كارولينا"، وبعدها بمدة قصيرة انتقلنا إلى شقق "البلوط الملكي" السكنية في "دورهام"، حيث كنت في فترة تخصصي بالجراحة في "دوك". لكن لم يكن بيتنا لا ملكيًا، ولا رأينا أي بلوط هناك. كُنّا نملك القليل جدًا من المال لكننا كُنا سعداء للغاية لكوننا مع بعضنا البعض، فلم يشغلنا الأمر.

أخذت الدكتوراه في الطب عام ١٩٨٠، في الوقت الذي نالت فيه "هولي" درجتها العلمية وبدأت عملها كفنانة وأستاذة. قمت بأول عملية جراحية بالمخ منفردًا في "دوك" عام ١٩٨١. وُلِدَ ابننا البكر، "إبين الرابع"، عام ١٩٨٧ في مستشفى الأميرة ماري للولادة في "نيوكاسل" بشمال إنجلترا أثناء زمالتي بالأوعية الدموية المخية. ووُلد ابننا الأصغر، "بوند"، عام ١٩٩٨ في مستشفى "بيرغهام" بوسطن.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أحببت عملي بكلية الطب في "هارفارد" وفي مستشفى بيرغهام لمدة خمسة عشر عامًا. وتحمل عائلتي أجمل الذكريات لتلك السنوات التي قضيناها في بوسطن الرائعة. لكن في عام ٢٠٠٥ اتفقت أنا و"هولي" على العودة إلى الجنوب مرة أخرى لنكون أقرب إلى عائلتينا، ولأُمارس مهنتي بشكل مستقل. وهكذا في ربيع ٢٠٠٦، انتقلنا إلى "لينشبرج"، في "فيرجينيا" الجبلية لنستمتع بحياة أكثر هدوءً في الجنوب.

عندما استيقظت يوم العاشر من نوفمبر عام ٢٠٠٨، حاولت أن أفهم ما الذي أيقظني. فاليوم السابق- الأحد- كان يوم مُشمس، صافي، بارد قليلاً كأي يوم خريفي في "فيرجينيا". كنت قد ذهبت أنا و"هولي" و"بوند" (عشر سنوات في ذلك الوقت)، إلى حفل شواء في بيت أحد الجيران. وفي المساء تحدثنا عبر الهاتف مع ابننا "ابين الرابع"(في العشرين من عمره في ذلك الوقت)، الذي كان طالبًا في السنة قبل الأخيرة في جامعة "ديلوير". كان كل ما هنالك إصابة "هولي"، بفيروس تنفسي بسيط كنت أحمله أنا و"بوند" من الأسبوع الأسبق. وكان ظهري يؤلمني قليلاً قبل النوم، ولكن الاستحمام بماء دافئ، أراحني قليلاً. فظننت أنني استيقظت مبكرًا هذا الصباح نتيجة بقاء ذاك الفيروس في جسمي؟

ابدلت وضعي في السرير، وإذ بموجة من الألم تجتاح عمودي الفقري أكثر حِدة من الليلة السابقة. وكلما نهضت أكثر كلما ازداد الألم سوءًا. وبما أنني لم أكن قادرًا على النوم مرة أخرى وكان لدى ساعة قبل أن يأتي ميعاد نزولي للعمل، قررت أن أُعرِّض ظهري لمزيد من الماء الدافئ مرة أُخرى. فجلست على السرير، ودليت رجلي نحو الأرض ووقفت، فازداد الألم أكثر وقد بدأ يُصيب عمودي الفقري بشكل مباشر. تركت "هولي" نائمة، ومشيت بخطى خافتة بطيئة إلى الحمام الرئيسي بالطابق العلوي في آخر الردهة.

فتحت الماء، واسترخيت في حوض الاستحمام، انتظارًا لتحسن ملحوظ. لكنني كنت مخطئ تمامًا. فقبل أن يمتلأ نصف حوض الاستحمام، كان الألم يزداد في الحدة بشكل يستدعي أن أستنجد بهولي لتساعدني على الخروج من حوض الاستحمام.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وبينما كُنت أفكر كم صار الموقف سخيفًا، أصابتني ضربة أخرى قوية من الألم في ظهري، جعلتني ألهث. بالتأكيد ليست هذه أنفلونزا، لكن ما عساها أن تكون؟ بعد الصراع للخروج من حوض الاستحمام الزلق لأرتدي ملابسي، اتجهت ببطء إلى غرفة نومنا مرة أخرى وأويت إلى الفراش. وكان جسمي قد ابتل مرة أخرى من العرق.

قلقت هولي فتقلبت. وسألتني: ماذا يحدث؟ كم الساعة؟

أجبتها: لا أعلم.. ظهري.. أنا أتألم بشدة.

بدأت "هولي" تُدلك لي ظهري. مما جعلني أشعر ببعض التحسن.

الأطباء، بوجه عام، لا يتقبلوا مرضهم بسهولة. وأنا مثلهم. فأقنعت نفسي أن الألم، أيًا كان سببه، لابد وسيتراجع في النهاية. لكن حتى السادسة والنصف صباحًا، وهو الموعد الذي أرحل فيه عادةً للعمل، كنت لازلت أعاني وكأني مشلول من شدة الألم.

في السابعة والنصف، جاء "بوند" إلى سريرنا، متسائلاً عن سبب بقائي في المنزل إلى هذا الوقت، قائلاً "ماذا يحدث؟"

قالت "هولي": "والدك ليس بخير يا حبيبي." كنت لاأزال راقدًا في السرير ورأسي مسنودًا على وسادة. اقترب "بوند" مني، وبدأ يُدلك صَدغي برفق. فأرسَلت لمسته هذه صاعقة مؤلمة جدًا لرأسي فصرخت. قفز "بوند" إلى الخلف، مندهشًا من ردة فعلي هذه. حاولت "هولي" أن تهدئ من "بوند" بينما كانت هي مذعورة، تبحث عما إذا كان عليها استدعاء الإسعاف أم لا.

إن كان هناك ما يكرهه الأطباء أكثر من إصابتهم بالمرض، فهو أن يدخلوا غرفة الطوارئ كمرضى. تصورت المنزل وهو مليء بفنيي الطوارئ الطبية، ووابل من الأسئلة، والرحلة إلى المستشفى، والاجراءات الإدارية و... كما فكرت إنه في مرحلةٍ ما سأبدأ في التحسن وسأندم على طلب الإسعاف كل الندم.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فقلتُ لهولي: "لا بأس". "إن الوضع سيء الآن لكنه سيتحسن سريعًا. فقط ينبغي أن تساعدي "بوند" ليستعد للمدرسة. سأكون بخير. لا تطلبي الإسعاف. أنا لست مريضًا لهذه الدرجة. إنه مجرد تقلص عضلي في أسفل ظهري، مصحوب بصداع."

رغم عدم اقتناعها، أخذت "هولي" "بوند" إلى الطابق السفلي وقدمت له طعام الإفطار قبل أن ترسله إلى منزل صاحبه ليركب معه إلى المدرسة. وبينما كان "بوند" يخرج من الباب الأمامي للمنزل، سألت نفسي ماذا لو كان الأمر خطيرًا، وانتهى بي الأمر في المستشفى، عندها لن أرى "بوند" عندما يرجع من المدرسة. فاستجمعت كل قواي وقلت بصوت خافت، "يومًا دراسيًا جميلاً يا بوند".

عندما عادت "هولي" لتطمئن عليَّ، كنت قد بدأت الدخول في الغيبوبة. فظَنَت إني أغفو قليلاً، لذا تركتني لأرتاح، ونزلت إلى أسفل لتتصل ببعض زملائي، لتأخذ رأيهم فيما يحدث.

بعد ساعتين، عادت لتطمئن عليَّ. ورأتني راقدًا في السرير كما كنت تمامًا. لكن، عندما اقتربت، اكتشفت أن جسمي ليس مرخيًا، بل متشنجًا صلبًا كلوح خشبي. أضاءت النور فرأتني ارتعش بعنف. وكان فكي الأسفل يبرز للأمام وعيناي مفتوحتان ومقلوبتان إلى الخلف.

صرخت "هولي" قائلة: "إبين، قل شيئًا!" وعندما لم أجيبها، اتصلت في الحال بالإسعاف الذين وصلوا في أقل من عشرة دقائق، وبسرعة حملوني في سيارتهم إلى غرفة الطوارئ بمستشفى لينشبرج العام.

لو كنت في وعيي في تلك اللحظات المرعبة التي كانت "هولي" تنتظر فيها الإسعاف، لفسرت لها طبيًا ما يحدث لي بالضبط - لكن بالطبع كان هذا مستحيلاً - نوبة صرع كُبرى كاملة، نتيجة صدمة حادة جدًا بالمخ.

قضيت سبعة أيام في غيبوبة كاملة، كنت موجودًا فيها بالنسبة لـ"هولي" وعائلتي بالجسد فقط. فكان عليَّ أن استعين بمن كانوا حولي في لأكتب هذا الجزء من قصتي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢. المُستشفى

غرفة الطوارئ بمستشفى لينشبرج العام هي ثاني غرف الطوارئ إشغالاً في ولاية فيرجينيا. وتعج دائمًا بالناس منذ التاسعة والنصف صباحًا كل أيام الأسبوع. ورغم إنني عملت مدة طويلة في "شارولتفيل"، إلا أنني عملت أيضًا ساعات كثيرة في مستشفى لينشبرج العام، وكنت أعرف كل طاقمها تقريبًا.

"لورا بوتر"، طبيبة طوارئ عَمَلت معي ما يقرب من عامين. هي من تلقت اتصال من سيارة الإسعاف، باقتراب وصول حالة صرع لرجل في الرابعة والخمسين من عمره. وبينما كانت تتوجَّه إلى مدخل سيارة الإسعاف، كانت تفكر في الاحتمالات المُسببة لهذه الحالة قبل وصولها؛ وقد كانت هي نفس الاحتمالات التي كُنت سأفكر فيها لو كنت في مكانها وهي: انسحاب كحولي، جرعة مخدرات زائدة، نقص غير طبيعي في نسبة الصوديوم بالدم، سكتة، نمو ورمي أو ورم أولي في المخ، نزيف في المخ، خُراج بالمخ... أو التهاب سحائي.

تعامَلَت "لورا" خلال سنوات عملها الطويلة في غرفة الطوارئ مع الكثير من الحالات الحرجة، لكنها كانت لأول مرة تتعامل مع أحد زملائها الأطباء في غرفة الطوارئ كمريض. فعندما نظرت عن قرب إلى ذاك المريض الذي يتلوى ويصرخ على النقالة، وعرفت من هو، قالت بصوت خافت: "إبين"؟؟!!

عندما أدخلني فنيو الطوارئ الطبية إلى مدخل غرفة الطوارئ، كنت لا أزال انتفض بعنف، وأَئن بشكل متقطع وأُلوِّح في الهواء بيدي ورجلي.

عَرفت دكتورة لورا من تلك الأعراض أن عقلي تعرض لنوبة عنيفة. فبدأ فريق العمل بخطوات سريعة في احضار عربة الطوارئ، وسحب عينة من الدم، ووضع محلول وريدي.

في هذا الوقت، كُنت أتلوى كسمكة أُنتشلَت من الماء، وأنطق بكلمات لا معنى لها، وأطلق صرخات كأصوات الحيوانات. وما أقلق لورا بالفعل، هو حركات جسدي غير

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المألوفة، والتي تَنُم ليس فقط عن تعرض العقل لنوبة، بل عن أصابته بتلف قد لا يمكن إصلاحه.

عندما عرفت "لورا" من هو المريض الماثل أمامها، هتفت بصوت عالي، لتنبه كل الأطباء وفريق التمريض الموجودين قائلة: "إنه إبين ألكسندر".

سمع الجميع والتفوا حولي، وانضمت "هولي" بمجرد وصولها لهذا اللفيف. أخذت "لورا" تسألها بسرعة أسئلة تحصر أقرب الاحتمالات المُسببة لحالتي. هل كنت أُقلع عن الكحول؟ هل تناولت مؤخرًا أي أقراص هلوسة قوية؟ ثم بدأت محاولاتها لإيقاف النوبة.

في الشهور الأخيرة، كنت قد اشتركت في تدريب قوة، لأتمكن من تسلق قمة جبل "كوتوباكسي" بالإكوادور وارتفاعه ١٩٣٠٠ قدم، مع "إبين الرابع" الذي كان قد تسلقه في فبراير السابق. زاد هذا التدريب من قوتي، بشكل جعل تثبيتي في السرير أثناء النوبة أكثر صعوبة. ورغم حقني بـ١٥ مليجرام بدواء ديازيبان الوريدي، إلا إنني كنت لا أزال أقاوم الجميع ليبعدوا عني.

عندما أخبرت "هولي" دكتور "لورا" عن الصداع الحاد الذي أصابني قبل النوبة، قررت "لورا" أن تأخذ عينة قَطَنيَّة، عن طريق سحب كمية قليلة من سائل النخاع الشوكي من العمود الفقري.

سائل النخاع الشوكي هو سائل شفاف كالماء، يحيط بالحبل الشوكي ويُغلِّف المخ، ليوفر لهما الحماية من الصدمات. يُنتج منه الجسم الطبيعي الصحي يوميًا حوالي "باينت" (ثُمن جالون تقريبًا). وفي حالة اكتشاف عدم نقاء في هذا السائل، فإن ذلك يشير إلى وجود عدوى أو نزيف.

تُدعى مثل هذه العدوى بالالتهاب السحائي، وهو تورم في السحايا. والسحايا هي الأغشية التي تبطن العمود الفقري والجمجمة. وهي على اتصال مباشر بسائل النخاع الشوكي. في كل خمس حالات للالتهاب السحائي، يكون أربع منها سببها فيروسي،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وواحدة فقط يكون سببها بكتيري. الالتهاب السحائي الفيروسي خطير، وقد يكون مُميت بنسبة ١٪ فقط، أمَّا الالتهاب السحائي البكتيري، فهو أكثر خطورة ومميت حقًا- لأن البكتريا أكثر بدائية من الفيروسات - وحتى إذا تم التعامل معه بسرعة بالمضاد الحيوي المناسب، فتكون إحتمالية الوفاة أيضًا من ١٥ إلى ٤٠ ٪.

أحد أندر أنواع البكتريا التي تُسبب الالتهاب السحائي البكتيري لدى البالغين، هي بكتريا قديمة جدًا وعنيدة جدًا هي المعروفة بـ "إيكولاي". ولا يعرف أحد بالتحديد عُمر الإيكولاي، لكنه يُقدر ما بين ٣: ٤ بليون سنة. هذا الكائن الحي ليس له نواة، ويتكاثر بطريقة بدائية لكن نشطة للغاية، تُعرف بالانقسام الثنائي اللا تزاوجي. تخيل خلية مُمتلئة بـالحمض النووي DNA، تحصل على غذائها عن طريق مهاجمة خلايا أخرى، وتمتصه بواسطة جدارها، وتصنع عدة نسخ من الحمض النووي، وتنقسم إلى خليتين كل عشرين دقيقة تقريبًا. وفي خلال ساعة، يصيرون ٨ خلايا. وفي اثنتي عشرة ساعة، يكونون٦٩ مليار خلية. وبمُضي خمس عشرة ساعة، سيكون لديك ٣٥ تريليون خلية. هذا النمو السريع لا يهدأ إلا عندما يبدأ غذاؤها في النفاذ.

الإيكولاي تعتبر أيضًا كائنات تبادلية. تستطيع أن تتبادل الجينات مع أنواع أخرى من البكتريا خلال عملية "الاقتران البكتيري"، فتكتسب خواص جديدة مثل مقاومة مضاد حيوي جديد مثلاً. وهذا هو سبب بقاء الإي كولاي منذ أن وُجِدَت الكائنات وحيدة الخلية حتى اليوم.

في الوضع الطبيعي، يحمل جهازنا الهضمي بكتريا الإي كولاي دون أن يُشكل لنا هذا أي تهديد. لكن عندما تتنوع تشكيلات الإي كولاي متخذة سلاسل جديدة من الحمض النووي، تصير كائنات عدوانية جدًا، تُهاجم سائل النخاع الشوكي الذي يحيط بالحبل الشوكي والمخ، وتبدأ في التهام الجلوكوز الموجود بالسائل، ثم تتحول لتلتهم المخ نفسه.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لم يخطر ببال أحد ممن كانوا معي في غرفة الطوارئ أنني مصاب بالتهاب سحائي بكتيري نتيجة الإيكولاي، لم يكن هناك ما يدعوهم حتى إلى الشك في هذا. فحديثي الولادة هم الأكثر عرضة للإصابة بهذا المرض. وتندر الإصابة به عند الرضع الذين تجاوزا الثلاثة أشهر الأولى. أما عند البالغين ففرصة الاصابة به لا تتعدي واحد إلى عشرة مليون حالة في السنة.

في حالة الالتهاب السحائي البكتيري، تُهاجم البكتريا الطبقة أو القشرة الخارجية للمخ أولاً. تلك الطبقة هي المسئولة عن الذاكرة، واللغة، والمشاعر، والإدراك البصري والسمعي، والمنطق. لذلك عندما تُهاجم الإيكولاي المخ، تُضار تلك العمليات الحيوية أولاً. عادة يموت مصابي الالتهاب السحائي البكتيري في الأيام الأولى من مرضهم. أما من يصلون إلى غرفة الطوارئ في مراحل الإصابة المبكرة مثلي، فمنهم عشرة بالمئة فقط هم المحظوظون الذين قد ينجون، لكن قد يقضي العديد منهم بقية حياته كميت وهو حي.

رغم عدم اشتباه دكتورة "لورا" في إصابتي بالالتهاب السحائي نتيجة الإيكولاي، إلا أنها استنتجت أنني مصابًا بنوع من أنواع العدوى بالمخ، لذلك قررت أن تأخذ عينة من سائل النخاع الشوكي. وبسبب حالة الهياج العصبي العنيفة التي كنت فيها، احتاجت "لورا" إلى ستة مساعدين لإبقائي ثابتًا لأخذ العينة من عمودي الفقري.

عندما تبدأ البكتريا بالهجوم، يتخذ الجسم في الحال موقف الدفاع، فتخرج أعداد كبيرة من كرات الدم البيضاء من ثكناتها في الطحال والنخاع العظمي لتحارب الغزاة، وغالبًا ما تكون هي الضحية الأولى في تلك الحرب، مما يعكر صفاء سائل النخاع الشوكي قليلاً، لكن هذا ينم عن وجود مشكلة كبيرة.

معرفة دكتور "لورا بوتر" بكل هذا جعلها تنظر بانتباه إلى جهاز "المانوميتر"، حيث الأنبوبة الشفافة التي ستظهر بها عينة سائل النخاع الشوكي. وكان أول ما أدهش "لورا" هو أن السائل تدفق في الأنبوبة بسرعة نظرًا لارتفاع ضغط الدم جدًا. ولكن ما أدهشها أكثر منظر السائل في المانوميتر، فقد كان لزجًا وأبيضًا، وبه مسحة خفيفة من اللون الأخضر. إذ كان قد امتلأ بالصديد.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٣. من حيث لا أدري

استدعت دكتور "بوتر" زميلها دكتور "روبرت بريتان"، أخصائي الأمراض المُعدية في مستشفى لينشبرج العام. وبينما كانا ينتظران نتائج المزيد من التحاليل، كانا يتناولان كل الاحتمالات التشخيصية والخيارات العلاجية المُمكنة. ازداد المشهد ارتباكًا، عندما جاءت نتيجة تحليل صبغة غرام[١] مشيرة إلى وجود عصويات سلبية- غرام، وهو أمر غير عادي. ثم جاءت الأشعة المقطعية على الرأس مشيرة إلى التهاب وتورم في الأغشية السحائية للمخ، لذا تم وضعي على مجموعة من الأجهزة لرصد ومتابعة جميع العمليات الحيوية للجسم.

الإصابة بالالتهاب السحائي البكتيري بالإيكولاي قد يكون سببها جراحة بالمخ أو جرح نافذ في الرأس مثلاً. وقد يكون تلقائي نتيجة ضعف في الجهاز المناعي بسبب الإيدز مثلاً. لكن لا يحدث أن تغزو بكتريا الإيكولاي المخ عن طريق الجيوب الأنفية أو الأذن الوسطى كغيرها من أنواع البكتيريا. كما لا تستطيع تلك الموجودة في الجهاز الهضمي أن تدخل محيط المخ والنخاع الشوكي، لأنه معزول بإحكام مما يحول دون حدوث هذا أو ذاك، ما لم يتم اختراق العمود الفقري أو الجمجمة بمُحفِّز داخلي للمخ أو تركيب جراحي لتحويلة دماغية على سبيل المثال. ولأني لم أتعرض لعمليات في المخ ولم أكن مصاب بالإيدز، فأنني ببساطة، كنت مصاب بمرض من المستحيل أن أُصاب به.

أربكت نتائج التحاليل الطبيبين، فقاما بالاتصال بخبراء الأمراض المعدية في المراكز الطبية الأكاديمية الكُبرى. واتفق الجميع على أن كل الدلالات تشير إلى تشخيص واحد: التهاب سحائي حاد بسبب الإيكولاي من لا شيء.

---

[١] صبغة غرام هو تحليل كيميائي، نُسب للطبيب الدنماركي الذي ابتكره، به تُصنف البكتريا المهاجمة للجسم إلى سلبية- غرام أو إيجابية- غرام

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لم يكن هذا التشخيص هو أغرب ما حدث لي في اليوم الأول بالمستشفى، بل حدث ما هو أشد غرابة، ففي اللحظات الأخيرة لي في غرفة الطوارئ، وبعد ساعتين متصلتين من الأنين والصراخ، وبعد أن سكت صوتي قليلاً، صرخت من حيث لا أدري بثلاث كلمات واضحة للغاية قائلاً: "يا.. الله.. ساعدني". سمعني الأطباء وكل الموجودين، بل و"هولي" أيضًا التي كانت تقف على بُعد خطوات قليلة، فأسرع الجميع نحو سريري. وكان هذا آخر ما صدر عني لمدة سبعة أيام. وأنا لا أتذكر أي شيء حدث لي في غرفة الطواري، بما في ذلك تلك الكلمات التي صرخت بها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٤. إبين الرابع

كانت حالتي تسوء من ساعة إلى أُخرى. حتى وصل مستوى الجلوكوز في سائل النخاع الشوكي إلى ١ مليجرام لكل عُشرُل[٢]. في حين يكون معدله عند الإنسان الطبيعي ٨٠ مليجرام تقريبًا، وقد يصل إلى أدنى مستوياته، عند من يحتضر إلى ٢٠ مليجرام.

كما كان قياس درجة الوعي لدي ١٥/٨ بمقياس جلاسكو كوما، مما يُشير إلى اعتلال خطير حَدَثَ بالمخ. وقد تراجعت هذه الأرقام أكثر في الأيام التاليَّة. أيضًا كان تصنيف شدة المرض عندي في غرفة الطوارئ ٧١/١٨ بمقياس APACHE II مشيرًا إلى ارتفاع فُرص حدوث الوفاة وانحسار فرص الحياة.

قام الأطباء بحقني بثلاث مضادات حيوية وريدية قبل أن أُنقل لغرفة رقم ١٠ في وحدة العناية المركزة، في الطابق الذي يعلو غرفة الطوارئ، تلك الغُرف التي كثيرًا ما دخلناها كجراحين، نصارع فيها للإبقاء على حياة مرضى كانوا قريبين جدًا من الموت.

أظهر دكتور برينان وباقي الأطباء تفاؤلاً أمام "هولي" قدر الإمكان رغم أن كل المؤشرات كانت تُرجِّح احتمالية الموت السريع عن البقاء حيًّا، وفي أحسن تقدير كنت سأحيا بمخ، أَتلفت تلك البكتريا قشرته المسئولة عن الكثير من العمليات الحيوية به. وبالطبع كلما طالت غيبوبتي، كلما زادت احتمالية بقائي في حالة غيبوبة مستمرة.

أتى الحظ في ذلك اليوم بالكثيرين للمساعدة. "مايكل سوليفان"، جارنا وكاهن كنيستنا الأسقفية، وصل إلى غرفة الطوارئ بعد "هولي" بساعة تقريبًا. "سيلفيا وايت" صديقة "هولي" التي غالبًا ما كانت تتصل في أوقات فاصلة حتى أن "هولي" كانت تراها وسيطة روحية، غير أنني كنت أراها شخصية بارعة في التخمين ليس إلا. اتصلت "سيلفيا" بهولي لحظة خروجها من الباب خلف سيارة الإسعاف، فعرفت منها ما كان يحدث، وقامتا ببعض الاتصالات بأقاربي، "بيتسي"، أختي الصغيرة التي كانت تعيش في

[٢] وحدة سعة تساوي عُشر لتر

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مكان قريب، "فيليس" أصغر إخوتي في الثامنة والأربعين من عمرها، تعيش في "بوسطن"، و"جين" أكبر إخوتي.

في صباح هذا الاثنين، كانت "جين" قد استقلت سيارتها ذاهبة إلى الجنوب عبر "فيرجينيا" من بيتها في "ديلاوير" لتساعد والدتنا، التي كانت تعيش في "وينستون- سيلم"، وفي الطريق اتصل بها "ديفيد" زوجها وطلب منها الاتجاه نحو "لينشبرج"، مُخبرًا إياها بأن "هولي" قد اتصلت لتخبرهم بأن "إبين" في غرفة الطوارئ.

اتصلت "فيليس" في الثالثة مساءً بـ"إبين الرابع" في سكنه بجامعة "ديلاوير". وأخبرته بالموقف وطلبت منه ألا يقلق. أخبرها "إبين" بأنه يحتاج بعض الوقت لكي يترك رسائل لأساتذته بالجامعة لأن امتحاناته كانت وشيكة. عرفتُ فيما بعد أن "إبين" لم يكن يتصور أنني كنت في حالة خطرة، خاصة أنه لم يرني يومًا مريضًا، فظن أن "فيليس" و"هولي" قد أعطتا الأمر أكثر من حجمه كعادتهما. لكن عندما اتصل به "مايكل سوليفان" بعد بساعة تقريبًا، أدرك أنه ينبغي أن يتحرك في الحال.

وبينما كان "إبين" متجهًا إلى "فيرجينيا" بسيارته، كانت "فيليس" في طائرة متجهة إلى هناك أيضًا. وصل "إبين" إلى المستشفى بعد أن اطمئن من "هولي" أن "بوند" نائم في المنزل، ودخل وحدة العناية المركزة في الساعة الحادية عشر وربع ليلاً. وكان الجميع قد غادر المكان ولم يبقى سوى صوت الأجهزة التي كانت تُبقي جسدي حيًا. تجمد "إبين" عند الباب عندما رآني. إذ لم يجد أمامه أباه الذي يعرفه بل جثته فقط.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٥. العالم السُفلي

ظلمة.. لكنها ظُلمة منظورة، كما لو كُنت مغمورًا في الوحل لكن أستطيع أن أرى من خلاله. أو ربما يمكن وصفه بشكل أفضل بأنه هلام غير نظيف، شفاف، لكنه معتم وضبابي، بطريقة خانقة تعطي شعور برهبة الاحتجاز.

وعي.. لكن وعي بدون ذاكرة أو هوية، كحلم تعرف فيه ما يحدث حولك، لكنك لا تعرف من، أو ماذا تكون.

صوت.. قرع متواتر، عميق، بعيد لكنه قوي، لدرجة أن كل نبضة منه تَعبُر من خلالك. تشبه قليلاً نبض القلب، لكن أكثر كآبة وميكانيكية، مثل صوت معدن مقابل معدن، كما لو أن حداد عملاق يعمل تحت سطح الأرض يدق سندان في مكان ما بعيد، ويدقه بقوة لدرجة أن الصوت يرسل ذبذبة عبر الأرض، أو الوحل، أو أيًا كان المكان الذي كُنت به.

على أية حال، لم يكن لدي جسد أدركه. كنت ببساطة... موجود هناك، في ذلك المكان ذو الظلمة النابضة، لم أكن أعرف هناك أي كلمات على الإطلاق. اللغة، والمشاعر، والمنطق، لم يكن لهم وجود، كما لو كنت قد رجعت إلى الحياة البدائية، أو صرت كتلك البكتريا البدائية، التي قد التهمت عقلي وأتلفته.

كم من الوقت أمضيت في هذا العالم؟ ليس لدي أي فكرة. عندما تذهب إلى مكان ليس فيه شعور بالوقت، يصبح من المستحيل أن تُقدِّر الوقت. لكن وأنا هناك، كنت أشعر كما لو كنت دائمًا هناك وسأظل دائمًا هناك.

لم يضايقني ذلك، على الأقل في البداية. ولماذا يضايقني؟ كانت هذه هي الحالة الوحيدة التي عرفتها للوجود هناك على الإطلاق. فبما أنه ليس لدي ذكريات لشيء أفضل، فلم أكن منزعجًا من المكان الذي كنت به. أتذكر أنه خطرت على بالي فكرة إن كنت سأنجو أم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لا، لكن عدم مبالاتي بهذا، منحني شعورًا كبيرًا بالأمان. كُنت أجهل القوانين التي تحكم هذا العالم الذي أنا فيه، لكن لم أكن مُتعجلاً لأعرفها. فلماذا أهتم؟

في مرحلةٍ ما استطعت أن أُدرك أن بعض الأشياء التي توجد حولي تشبه الجذور، كما تشبه الأوعية الدموية في رَحِم واسع، متوهجة بلون أحمر داكن، كانت تمتد من مكان بعيد جدًا بالأعلى إلى مكان آخر مساوي له في البُعد لأسفل. عندما أُعيد التأمل في كل هذا، أراني كدودة أرض، مدفونة بعمق في الأرض ومع ذلك تستطيع بطريقةٍ ما أن ترى المنابت المتشابكة للجذور والأشجار التي تحيط بها.

لذلك دعوت هذا المكان لمدة طويلة فيما بعد: "عالم بمنظور دودة الأرض". وكنت أشك أن ما رأيته قد يكون ترجمة لما يحدث لمخي أثناء مهاجمة البكتريا له. لكن كلما فكرت أكثر في هذا التفسير، كلما قل اقتناعي به. لأنه بالرغم من صعوبة تخيل هذا المكان لمن لم يراه بنفسه، إلا أنه كان يوجد وعي، ربما محدود لكن ليس مشوش. لم أكن إنسان عندما كنت في ذلك المكان. كما لم أكن حيوانًا. كنت شيئًا بدائيًا، أدنى من كل ذلك. كنت ببساطة نقطة وحيدة من الوعي في بحر أحمر، بني سرمدي.

كلما طالت مدة اقامتي في هذا المكان، كلما بدأتُ أقلق. في البداية كُنت مغمورًا فيه بعمق لدرجة أنه لم يكن هناك فرق بيني وبين العناصر التي تحيط بي؛ تلك العناصر التي يبدو بعضها مخيف من ناحية، وبعضها مألوف من ناحية أخرى. لكن بالتدريج ترك هذا الشعور بالانغماس العميق، مكانًا لشعور آخر بأنني لست فعلاً جزءًا من هذا العالم التحتي على الإطلاق، لكنني عالق به.

وجوه حيوانية غريبة كانت تبرز من الوحل، تئن أو تصرخ، ثم تختفي مرة أخرى. وكنت أسمع بين الحين والآخر زئير غير واضح. وأحيانًا كانت أصوات الزئير هذه تتحول إلى أناشيد متواترة خافتة، مرعبة لكنها مألوفة كما لو كنت في وقتٍ ما أعرفها وأُنشدها بنفسي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بما أنني كنت هناك بلا أي ذاكرة لوجود سابق، فلا أستطيع أن أُحدد المدة التي أمضيتها في هذا العالم، لكنها كانت طويلة جدًا. ربما كانت شهور؟ سنوات؟ أبدية؟!.. بغض النظر عن الإجابة، فأنا في النهاية وصلت إلى مرحلة طغى فيها الشعور المُروع على الشعور المُريح. كلما ازداد شعوري بأنني مُنفصل عن كل ما هو بارد ومُبتل ومُظلم حولي، كلما ازدادت الوجوه التي تبرز من الظلمة بشاعةً وتهديدًا؛ وكذلك زادت حدة وقوة صوت القرع المتواتر البعيد، وصار كأنه إيقاع رتيب مستمر لطبول جيش من العمال تحت الأرض من الكائنات العجيبة. صارت الحركة حولي مرئية بشكل أقل وملموسة بشكل أكبر، كما لو كان هناك كائنات زاحفة تشبه الدود، تحتشد، وبين الحين والآخر تحتك بي بجلودها الناعمة أو الشائكة.

ثم بدأت أُدرك وجود رائحة، ربما تشبه رائحة البراز، وربما الدم، وربما القيء. بمعنى آخر، كانت رائحة عضوية، رائحة موت عضوي، وليست حياة عضوية. وكلما ازدادت حدة وعيي أكثر، كلما شعرت بالخوف أكثر، وبأنني لا أنتمي لهذا المكان وصارت هناك ضرورة لخروجي منه. لكن إلى أين أذهب؟

وفي نفس اللحظة التي كنت أسأل فيها نفسي هذا السؤال، ظهر لي شيئًا جديدًا من الظلمة التي فوق. لكنه لم يكن هذه المرة باردًا أو ميتًا أو مظلمًا؛ بل على العكس تمامًا؛ كان جميلاً جدًا حتى أنني لو حاولت طوال حياتي أن أصفه لما استطعت لكنني سأحاول.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٦. دعم للبقاء

وصلت "فيليس" إلى المستشفى بعد "إبين الرابع" بساعتين أي في الواحدة صباحًا تقريبًا. وعندما دخلت غرفة العناية المركزة وجدت "إبين الرابع" جالسًا بجانب سريري، مُمسكًا بوسادة أمامه لتساعده على البقاء مستيقظًا، فطَلَبَت منه أن يغادر إلى بيته ليرتاح من السفر ويعود في الغد وأنها هي من سيمكث معي هذه الليلة.

وبعد إلحاح شديد، ألقى "إبين الرابع" نظرة على جسدي ووجهي ومضى. جَلَست "فيليس" بجانب سريري، لا يرافقها سوى صوت الأجهزة وزيارات الممرضة الليلية من حين لآخر. أمسكت "فيليس" يدي وأخذت تربض عليها وتُدلكها، لأنها كانت تعلم أهمية هذا التواصل بالنسبة لي لو كنت سأحيا. فالعلاقات العائلية عند سكان الجنوب حميمة جدًا، على عكس الوضع في الشمال. فعندما ذهبت إلى "هارفارد" عام ١٩٨٨، كان أول ما لاحظته أن أهل الشمال يخجلون من الاعتراف بحقيقة، يعتبرها سكان الجنوب مُسلَّمة، وهو أن عائلتك هي أنت.

على مدى حياتي، كانت علاقتي بعائلتي- والديَّ وإخوتي قبلاً ثم "هولي" وابنيَّ- هي مصدر قوتي واستقراري. وزاد ذلك في السنوات الأخيرة. حيث صارت عائلتي هي ملجأي عندما احتاج إلى الدعم في عالم يفتقد هذا كثيرًا.

كنتُ أحيانًا أذهب إلى كنيستنا الأسقفية مع "هولي" والأولاد. لكن بعد سنوات قليلة اقتصر ذهابي إليها على عيدي الميلاد والقيامة فقط. ورغم أنني كنت أُشجع ولدينا على الصلاة قبل النوم، إلا أنني لم أكن قائدًا روحيًا في منزلنا، إذ لم أستطع أبدًا أن أغلب شكوكي في أهمية كل هذا. ورغم أنني كنت أؤمن بوجود الله والسماء والحياة بعد الموت منذ صباي، إلا أن العقود التي أمضيتها وسط عقلانية العلم القاسي الذي يجعل من المخ مصدرًا لكل إدراك فينا، جعلني أرتاب بشدة في وجود مثل هذه الأمور.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ومثل كل العاملين بمجال الرعاية الصحية والذين يتعاملون بشكل مباشر مع مرضى يحتضرون أو مع عائلاتهم، سمعتُ بل ورأيتُ أيضًا الكثير من المعتقدات الفائقة للطبيعة التي لا يمكن تفسيرها. فكنت أعتبرها غموض يفتقد إلى منطق يفسره. لا يعني هذا أنني كنت ضد هذه المعتقدات، فأنا كطبيب كنت أرى دائمًا معاناة المرضى الجسدية والنفسية والتي كان يُهوِّنها ما لديهم من إيمان، لما يبث هذا الإيمان في نفوسهم من راحة وأمل، كنت أنا شخصيًا أفتقدهما.

لكن على المدى الطويل قوَّضت نظرتي العقلانية العلمية، قدرتي على الإيمان. كمحيط ينحر شاطئ ببُطء. إذ وجدت العلم يقدم أدلة قوية وثابتة لكل ما هو كائن، لكن الإيمان فهو مجرد شيئًا لطيفًا.

فصرت لا أؤمن إلا بما أستطيع أن أراه بعيني وألمسه بيدي، وهذا هو سبب اتجاهي لتخصص المخ والأعصاب مثل أبي. فهو علم يجمع بين المعرفة النظرية والعلمية معًا. وعلى الرغم من كم الغموض الموجود في عقل الإنسان، إلا أنه مادي بدرجة كبيرة. فهو الجهاز الذي يُنتج الوعي، وإصلاحه جراحيًا لا يختلف عن اصلاح أي جهاز كهربائي حساس. يأتي المريض يشكو من صداع وضعف في الوعي. نقوم بعمل تصوير بالرنين المغناطيسي للمخ ونكتشف ورم. نقوم بتخديره تخدير كلي، نزيل الورم، وبعد ساعات قليلة يعود إلى وعيه. لا مزيد من الصداع، لا مشاكل مع الوعي. يبدو الموضوع بسيطًا واضحًا، وهذا ما كنت أعشقه في العلم. أنه لا يترك مجالًا للخيال أو التخمين. فكل حقيقة تُثبَت ماديًا فهي مقبولة. وإذا لا، فهي مرفوضة.

طريقة التفكير هذه ضيقت جدًا على النفس والروح، فلم تدع لهما مجالاً لكي يستمرا بعد أن يتوقف المخ. كما لم تترك مكانًا كافيًا لفهم عبارة "الحياة الأبدية" التي كنت أسمعها في الكنيسة مرارًا وتكرارًا. لذلك كنت أستعيض بحب عائلتي لسد هذا الفراغ، وإلا لما تمكنت من ممارسة مهنتي والقيام بأعمالي اليومية، ولا حتى أن أرى الأمور التي رأيتها، بدون الدعم الأساسي الذي كانت تقدمه لي عائلتي من حب وتَفهُّم.

وهذا ما جعل "فيليس" تخبرني - عندما كانت تجلس بجانبي وتمسك بيدي - بأنه مهما سيحدث سيظلون بجانبي، ممسكين بيدي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٧. اللَّحن والبوابة

ظهر في الظلمة شيئًا، يشع أثناء دورانه ببطء، خيوطًا رفيعة من ضوء أبيض ولون ذهبي، فبدأت الظلمة التي حولي تتبدد وتنقشع.

ثم سمعت صوتًا جديدًا يصاحب الضوء، صوتًا حيًا، يبدو كأجمل قطعة موسيقية من الممكن أن نسمعها على الإطلاق، فصار يغلب صوت الدق الآلي الرتيب الذي كان يصاحبني لمدة.

أخذ الضوء يقترب أكثر وأكثر، يدور ويدور ويولد تلك الخيوط ذات الضوء الأبيض النقي، التي كان يتخللها مقدار ضئيل من الذهب. وفي منتصف الضوء تمامًا، ظهر شيء آخر. ركزت بقوة محاولاً أن أكتشف ما هو. لقد كان فتحة، بوابة. فلم أعد أنظر إلى الضوء الذي يدور ببطء، بل أنظر من خلاله. بدأت بسرعة أتحرك إلى أعلى، وفي لحظة عبرت الفتحة ووجدت نفسي في عالم جديد تمامًا. أغرب وأجمل عالم رأيته على الإطلاق.

مُشرق، نابض بالحياة، مبهج، ساحر... لا تكفيني الكلمات لوصفه. وشعرت كما لو كنت أُولد.. لا أُولد من جديد، أو أُولد مرة أخرى؛ بل فقط ... أُولد.

كانت تحتي منطقة زراعية خضراء، مزدهرة، تشبه كوكب الأرض. لكنها لم تكن كذلك. شَعُرت تجاهها بما تَشعر به عندما يأخذك والداك مرة إلى مكان قضيت به بعض سنوات طفولتك المبكرة. أنت لا تعرف المكان، أو على الأقل تعتقد أنك لا تعرفه. لكن عندما تنظر حولك، يجذبك شيءٌ ما، وتدرك أن جزءًا عميق وداخلي جدًا منك يتذكر بالفعل هذا المكان، وتبتهج لأنك رجعت إليه مرة أخرى.

كنت أطير مُحلقًا فوق الأشجار والحقول، والجداول والشلالات. كان يوجد بشر هنا وهناك. وكان يوجد أطفال أيضًا، يضحكون ويلعبون. كان البشر يغنون ويرقصون في دوائر. كانوا يرتدون ملابس بسيطة لكن جميلة، وبدا لي أن ألوان تلك الملابس لها

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

نفس الدفء الحي الذي للأشجار والورود المزهرة والمتفتحة في تلك المساحات الخضراء التي حولهم.

إنه عالم أحلام جميل ومذهل، لكنه لم يكن حلمًا. وعلى الرغم من أنني لم أكن أعرف أين كنت، أو حتى ماذا كنت، إلا أنني كنت متأكدًا تمامًا من شيء واحد فقط، وهو أن هذا المكان الذي وَجَدت نفسي به فجأة كان حقيقيًا تمامًا. وحتى كلمة "حقيقي" للأسف لا تستطيع أن تعبر عما أحاول أن أصفه. تخيل وكأنك طفل ذهب لدخول السينما في أحد أيام الصيف. ربما كان الفيلم جيدًا، واستمتع بمشاهدته. لكن عندما ينتهي العرض، ويخرج من المسرح، ويرجع إلى الدفء العميق النابض بالحياة والسرور لشمس ما بعد الظهيرة، يتساءل لماذا أهدر هذا اليوم الرائع ليجلس في مسرح مظلم؟ ضاعف هذا الشعور أضعافًا، فلن تقترب من الشعور الذي شعرت به حيث كنت.

لا أعرف، بالتحديد، كم من الوقت حلَّقت فيه فوق هذا المكان. فالوقت هناك يختلف عن الوقت الذي نعرفه على الأرض ويصعب جدًا وصفه مثل أي شيء في هذا العام. لكني في مرحلةٍ ما، أدركت أنني لم أكن وحدي أُحلق، كان هناك أحد بجانبي. فتاة جميلة ذات عظمتي وجنتين مرتفعتين وعيون زرقاء عميقة. كانت ترتدي نفس نوع الملابس الشبيهة بالملابس الريفية التي كان يرتديها الناس في القرية التي تحتنا. خصلات بنية ذهبية من شعرها تحيط بوجهها الجميل. كنا راكبين معًا على سطح منقرش ومزخرف، مفعم بالحيوية بألوانه الزاهية التي لا يمكن وصفها، كأن هذا جناح فراشة. في الحقيقة، كانت ملايين الفراشات تحيط بنا، أفواج ضخمة منها ترفرف حولنا بأجنحتها، تنزل إلى الخضرة ثم ترتفع مرة أخرى. لم تكن تظهر فراشة واحدة منفردة، بل كلهم كانوا معًا، كما لو كانوا سيل من الحياة والألوان، يتحرك في الهواء. كنا نطير في شكل حلقات حول الورود المزهرة والبراعم التي كانت تتفتح عندما نطير بجانبها.

كان رداء الفتاة بسيطًا. ألوانه: أزرق فاتح، وبرتقالي فاتح، ألوان زاهية، مُفعمة بالحيوية، مثلها مثل كل شيء كان يحيط بنا. نَظَرَت إليَّ نظرة، تستحق أن يحيا الإنسان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ليراها. لم تكن نظرة رومانسية. ولم تكن نظرة صداقة. بل كانت أسمى من أي نظرة لدينا هنا على الأرض، تجمع في داخلها كل أنواع الحب المختلفة، لكنها في الوقت نفسه أكثر صدقًا ونقاءً منها جميعًا.

تَحدثت إليّ، بدون استخدام أي كلمات، عَبَرَت رسالتها من خلالي كالريح، وفهمت في الحال أنها كانت حقيقية، بنفس الطريقة التي كان بها كل العالم الذي حولي حقيقي وليس خياليًا.

كان للرسالة ثلاث أجزاء، وإن كان لي أن أترجمها بلغتنا الأرضية، سأقول أنها كانت كالتالي:

"أنت محبوب ولك معزة إلى الأبد."

"يجب ألا تخاف شيئًا."

"لا يمكنك أن تُخطئ بشيء."

غمرتني هذه الرسالة بشعور هائل بالراحة. كما لو كُنت قد فهمت قواعد لعبة كُنت ألعبها طوال حياتي دون أفهمها تمامًا.

ثم قالت "سوف نُريك أمورًا كثيرة هنا". قالت هذا دون أن تستخدم فعلاً تلك الكلمات بل بنقل جوهرها ومعناها إلى داخلي مباشرةً. ثم قالت: "لكن في النهاية، سوف تعود." وكان لدي سؤالاً واحدًا بهذا الشأن. وهو: إلى أين سأعود؟!.. فأنا لست إنسان عاطفي ساذج، أنا أعرف كيف يبدو الموت، أعرف كيف يكون هناك إنسان حي، أتحدث وأمزح معه، ثم يصير في لحظة كائن بلا حياة على طاولة العمليات بعد أن أُصارع لإبقاء أجهزة جسمه تعمل. أنا أعرف كيف تبدو المعاناة، والحزن على وجوه الأحباء الذين فقدوا شخصًا لم يتخيلوا يومًا أنهم قد يفقدوه. كما أنني أعرف جيدًا الفرق بين الحقيقة والخيال، وأعرف أن ما أرويه لكم هو أكثر تجارب حياتي واقعية.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٨. من إسرائيل

بحلول الثامنة من صباح اليوم التالي، كانت "هولي" قد عادت إلى غرفتي مرة أخرى. لتتناوب مع "فيليس" الجلوس معي، آخذة مكانها في الكرسي الذي بجانب رأس سريري وممسكة بقوة بيدي التي لاتزال بلا استجابة.

في حوالي الحادية عشر صباحًا، وصل "مايكل سوليفان". وشكَّل الجميع دائرة حولي، وأمسكت "بيتسي" بيدي لتشركني معهم. قام "مايكل" بقيادة الصلاة. وبينما كانوا ينتهون منها، دخل أحد الأطباء المتخصصين في الأمراض المُعدية، ومعه تقرير جديد من المعامل مفاده استمرار ارتفاع عدد كرات الدم البيضاء، بالرغم من تعديلهم للمضادات الحيوية التي أتناولها على مدار الليل. إذ كانت البكتريا مستمرة، دون أن يعوقها شيء في مهمتها التي هي التهام مخي.

عندما بدأت الخيارات تنفذ منهم، قام الأطباء مرة أخرى عن طريق "هولي" بمراجعة تفاصيل الأنشطة التي قمت بها في الأيام القليلة الماضية. ثم امتدوا بأسئلتهم ليقوموا بتغطية أحداث الأسابيع القليلة الأخيرة. ربما يصلوا لما قد يساعدهم في تفسير حالتي. وعندما ذكرت "هولي" أنني ذهبت في رحلة عمل إلى إسرائيل منذ شهور قليلة، رفع دكتور "برينان" نظره عن مفكرته.

خلايا الإيكولاي البكتيرية تستطيع أن تتبادل الحمض النووي ليس فقط مع خلايا الإيكولاي مثيلاتها، بل مع كائنات بكتيرية أخرى سلبية الغرام. فلو وجدت بكتريا إيكولاي نفسها في بيئة بيولوجية قاسية مع بعض الكائنات البدائية الأخرى التي تتأقلم بشكل أفضل منها، تستطيع الإيكولاي أن تكتسب بعض الحمض النووي من تلك البكتريا الأكثر تأقلمًا لتتعايش. وهنا يؤخذ في الاعتبار أي سفر بين دول العالم، ونوع المضادات الحيوية، والسلالات المتجددة من الأمراض البكتيرية سريعة التحول.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عام ١٩٩٦، اكتشف الأطباء سلالة جديدة من البكتريا تأوي الحمض النووي لجين يُعرف باسم "الكلبسيلة الرئوية" KPC وهو إنزيم يمنح البكتريا المضيفة مقاومة لأي مضاد الحيوي، وقد وُجِدَت في معدة أحد المرضى وكان قد توفى في مستشفى بشمال كارولينا. جذبت هذه السلالة اهتمام الأطباء في العالم كله عندما تم اكتشاف أن KPC تستطيع أن تنتج بكتريا مقاومة ليس فقط لبعض المضادات الحيوية الموجودة، بل لها كلها.

إذًا انطلقت سلسلة من البكتريا الضارة، المقاومة للمضادات الحيوية في وسط عدد كبير من الناس، ستتحقق كارثة للجنس البشري. إذ لا توجد مضادات حيوية في عالم الصيدلة على مدى عشر سنوات تستطيع أن تكون مُنقذًا في هذه الحالة.

كان قد وصل إلى علم دكتور "بريتان" منذ شهور قليلة، أن هناك مريضًا كان قد دخل إلى مستشفى بعدوى بكتيرية قوية وتم اعطائه مجموعة قوية من المضادات الحيوية في محاولة للسيطرة على عدوى الكلبسيلة الرئوية لديه. لكن استمرت حالة الرجل في التدهور. وكشفت التحاليل والفحوصات أن المضادات الحيوية لم تأتي بمفعولها. كما كشفت تحاليل أخرى أن البكتريا التي كانت تعيش في الأمعاء الغليظة للرجل، قد اكتسبت هي أيضًا جين KPC بانتقال بلازمي مباشر من عدوى الكلبسيلة الرئوية لديه. أي أن جسمه كان قد صار معملاً لخلق فصيلة من البكتريا، إن انتشرت بين الناس، قد تضاهي الموت الأسود، أي الطاعون الذي قتل نصف أوروبا في القرن الرابع عشر.

كان مركز سوراسكي الطبي في تل أبيب - إسرائيل، هو مقر تلك الواقعة. وكان ذلك في نفس الوقت الذي كنت فيه هناك، أي قبل مرضي بشهور قليلة، إذ كنت في رحلة عمل لحضور مبادرة البحث العالمي لجراحة المخ بالأشعة المُركزة. وصلت تل أبيب في الثالثة والربع صباحًا، وبعد أن وجدت فندقي قررت أن أخذ جولة في المدينة القديمة. وانتهى بي المطاف قبل الفجر في طريق الآلام وزيارة المكان المحتمل للعشاء الأخير. لقد كانت الرحلة مؤثرة بشكل غريب، وعندما رجعت إلى الولايات المتحدة كنت كثيرًا ما أذكرها

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لـ"هولي". لكن في ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئًا لا عن مريض مركز سوراسكي الطبي، ولا عن تلك السلالة من الإي كولاي التي اكتسبت جين KPC.

بينما كنت في KPCهل من الممكن أن أكون قد التقطت عدوى بكتريا تأوي إسرائيل؟ كان الاحتمال ضعيفًا جدًا، لكنه التفسير المنطقي الوحيد لمقاومة العدوى التي لدي للمضادات الحيوية. وأخذ أطبائي يعملون ليقرروا ما إذا كان هذا ما حدث بالفعل. وهنا تكاد أن تُشكل حالتي جزءًا من التاريخ الطبي لهذا المرض.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٩. المركز

في تلك الأثناء، كُنت في مكان به سُحب كبيرة بيضاء ووردية، تظهر بوضوح وسط السماء الزرقاء الداكنة التي تميل للسواد. فوق السحاب بمسافة لا يمكن قياسها، كانت توجد أسراب من الأجرام السماوية الشفافة، كيانات لامعة تُشكل أقواسًا في كبد السماء، تاركة خلفها خطوطًا طويلة شبيهة بالشفق القطبي الشمالي.

طيور؟ ملائكة؟ لم تخطر ببالي تلك الكلمات سوى وأنا أدون ذكرياتي. لكن ولا حتى هذه الكلمات تقدر أن تعبر بصدق عن هذه الكائنات، التي كانت ببساطة تختلف تمامًا عن أي شيء نعرفه على هذا الكوكب. كانوا أكثر علوًا وسموًا.

صوت هائل مُدوي، كأنشودة مجيدة تنزل من أعلى. وتساءلت إن كانت صادرة من تلك الكائنات المجنحة. وعندما أعدت التفكير في الأمر فيما بعد، فهمت أن سعادة تلك الكائنات أثناء تحليقها، كانت وراء هذا الصوت. كان الصوت مُجسمًا، ويكاد يكون ماديًا، مثل المطر الذي تستطيع أن تشعر به على بشرتك دون أن يبللها.

لم تكن الرؤية والسمع شيئين منفصلين في هذا المكان. كنت أستطيع أن أسمع جمال الأجسام الفضية لتلك الكائنات المتلألئة، كما أستطيع أن أرى صوت ما ينشدون، كأنك عندما تنظر أو تسمع أي شيء في هذا العالم، تصبح جزءًا منه بطريقة ما. فأنت لا تنظر "إلى" الأشياء في هذا العالم، لأن كلمة "إلى" في ذاتها تحمل معنى الانفصال، وهو أمر غير موجود هناك، كل شيء هناك مُتميز، لكن في الوقت نفسه كان جزءًا من شيء آخر، مثل التصميمات الأنيقة المتداخلة لسجادة فارسية... أو لجناح فراشة.

هبت ريح دافئة، مثل التي تهب في أفضل أيام الصيف، فتحركت أوراق الأشجار ثم انسابت كمياه سماوية، نسيم إلهي. لقد غيَّرت الريح كل شيء، ونقلت العالم حولي إلى سلم موسيقي أعلى، أو إلى تردد أعلى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مع أنني كنت لا أملك إلا إمكانيات لغوية ضئيلة، على الأقل بمقياسنا الأرضي، إلا أنني بدأت بلا كلام أسأل هذه الريح أو هذا الكيان الإلهي الذي كنت أشعر أنه يحركها:

- أين هذا المكان؟
- من أنا؟
- لماذا أنا هنا؟

في كل مرة كُنت أطرح أحد تلك الأسئلة، كانت تأتي الإجابة في الحال في تدفق قوي من النور والألوان والمحبة والجمال، يجتاز من خلالي كموجة عارمة. والمهم في ذلك التدفق، أنه لم يكن يغمر أسئلتي فيُسكتها، بل كان يجُيب عليها، لكن بطريقة تفوق اللغة. كانت الأفكار تدخُلني بشكل مباشر. لكنها لم تكن أفكار كالتي نعرفها على الأرض. لم تكن غامضة، أو مجازية، أو مجردة. بل كانت أفكار حكيمة ومباشرة. وأثناء استقبالي لها كنت أستطيع أن أفهم معانيها في الحال وبلا جهد، بينما كانت ستتطلب مني سنوات كثيرة على الأرض لأفهمها.

تابعت تحركي للأمام فوجدت نفسي أدخل في فجوة هائلة، مُظلمة جدًا، لكن في الوقت نفسه مريحة تمامًا. بقدر ما كان سوادها حالك، بقدر ما كانت أيضًا ممتلئة بضوء وكأنه يأتي من جرم سماوي مشع. جرم حي ويكاد يكون مجُسم، كما كانت أناشيد الكائنات الملائكية.

كان موقفي، لغرابته، مشابه للجنين في رحم أمه. فالجنين يطوف في الرحم مع رفيقته الصامتة أي المشيمة، التي تغذيه، وتُعتبر الوسيط بينه وبين ذلك الكيان غير المرئي الذي يحيط به أي الأم. في هذه الحالة، كان الله هو "الأم"، الخالق، مصدر صناعة الكون وكل ما به. كان قريبًا جدًا وكأنه لا توجد أي مسافة بين الله وبيني. لكن في الوقت نفسه، كنت أشعر بالاتساع اللانهائي للخالق، ورأيت كم أنا صغير جدًا بالمقارنة به. سوف استخدم بين الحين والآخر تعبير "OM" للإشارة إلى الله لأنني استخدمت هذا الاسم في كتاباتي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بعد الغيبوبة. كان "OM" هو الصوت الذي أتذكر أنني سمعته مصاحبًا لذلك الإله المحب بلا حدود، كلي العلم، وكلي القدرة، الذي لا تستطيع الكلمات أن تصفه.

ثم أدركت أن الجرم السماوي كان هو رفيقي في هذا الاتساع الكبير الذي بيني وبين "OM". وبطريقةٍ ما وجدت هذا الجرم وكأنه "المترجم" والوسيط بيني وبين هذا الوجود المحيط بي.

كان الأمر كما لو كنت قد وُلدت في عالم أكبر، من رحم كوني عملاق، والجرم السماوي (الذي ظل بطريقةٍ ما مرتبطًا بالفتاة التي على جناح الفراشة) كان يرشدني خلال هذه العملية.

فيما بعد، عندما رجعت هنا إلى العالم، وجدت مقطع من كلمات الشاعر المسيحي "هنري فوجهان" بالقرن السابع عشر تقترب من وصف هذا المكان الفسيح، الأسود الحالك الذي هو مكان الإله نفسه، فيقول: "يقول البعض، توجد في الله ظلمة عميقة لكن متألقة..." كان هذا هو الحال بالضبط، ظلمة حالكة ممتلئة بالنور في الوقت نفسه.

استمرت الأسئلة والأجوبة. مع أنها لم تكن بلغتنا التي نعرفها، كان صوت هذا الكيان دافئًا وشخصيًا. كان يفهم البشر، ويمتلك الصفات التي نمتلكها، لكن بمقدار أعظم وغير محدود. كان يعرفني بعمق ويفيض بصفات كنت أربطها طوال حياتي بالكائنات البشرية فقط، مثل الدفء، التعاطف، الشفقة... وحتى السخرية والفكاهة.

من خلال الجرم السماوي، أخبرني "OM" أنه لا يوجد كون واحد بل العديد منهم، لكن الحب يوجد في مركزهم جميعًا. الشر موجود في كل الأكوان الأخرى أيضًا، لكن بكميات ضئيلة للغاية. كان الشر ضروريًا لأنه بدونه يكون من المستحيل أن تكون هناك إرادة حرة، وبدون الإرادة الحرة لا يكون هناك نمو إلى الأمام، ولا فرصة لنا لنصير كما يتوق الله أن نكون. وبرغم ما يبدو من بشاعة وقوة الشر في بعض الأحيان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في عالم كعالمنا، إلا أن الصورة العامة تؤكد أن الحب سائد بشكل طاغي، وسوف ينتصر في النهاية.

رأيت أنه توجد حياة في كل مكان من الأكوان التي لا تحصى، بما في ذلك من يفوق ذكائهم ذكاء البشر. كما رأيت أن هناك عدد لا نهائي من العوالم العليا، لكن الطريقة الوحيدة لمعرفة تلك العوالم هي دخولها واكتشافها بشكل مباشر. لا يمكن معرفتها، أو فهمها، من مكان أدنى. في تلك العوالم العليا، يوجد السبب والنتيجة، لكن بمفاهيم تختلف عن مفاهيمنا الأرضية. مفاهيم الزمن والمساحة التي نتحرك على أساسها في هذا العالم الأرضي، تتشابك وتتداخل مع تلك العوالم العليا. بتعبيرٍ آخر، تلك العوالم ليست منفصلة تمامًا عنّا، لأن كل العوالم هي جزء من الحقيقية الإلهية المحيطة بالكل.

قد يستغرق الأمر كل حياتي، وربما أكثر، لأُفضي بما تعلمته هناك بالأعلى. المعرفة التي قُدمَت لي لم "أتعلمها" بطريقة دروس التاريخ أو نظريات الرياضيات. بل قُدِّمت بشكل مباشر، دون الحاجة إلى انتزاعها وتشربها. كانت المعرفة تُختزَن دون حفظ، في الحال وإلى الأبد.؛ لا تتلاشى، كما يحدث مع المعلومات العادية، وحتى يومنا هذا ما زلت أملكها جميعًا، بشكل أوضح بكثير من المعلومات التي اكتسبتها على مدار سنوات دراستي كلها.

لا يعني ذلك أنني أستطيع أن أفهم هذه المعرفة بسهولة، لأنني الآن بعد أن رجعت هنا إلى هذا العالم الأرضي، عليَّ أن أقوم بمعالجتها في جسدي وعقلي الماديين المحدودين. لكنها موجودة؛ أشعر بها، كامنة داخل كياني. بالنسبة لشخصٍ مثلي أمضى حياته كلها يعمل بكد ليجمع المعرفة والفهم بالطريقة التقليدية، كان اكتشاف هذا المستوى الأكثر تقدمًا من التعلم، وحده كافيًا ليمدني بمادة للتفكير لعصورٍ قادمة...

لكن للأسف، بالنسبة لعائلتي وأطبائي على الأرض، كان الموقف مختلفًا تمامًا.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٠. المُهم

لاحظت "هولي" كيف اهتم الأطباء بموضوع رحلتي إلى إسرائيل، لكنها لم تفهم لماذا كان الأمر بهذه الأهمية. وقد كان من الأفضل أنها لم تفهم، فخوفها من شبح موتي المحتمل كان كافيًا، لا يحتمل أن يُضاف إليه فكرة أن أكون شرارة انتشار وباء يعادل الطاعون الأسود في القرن الحادي والعشرين.

في تلك الأثناء، كان هناك المزيد من الاتصالات بالأصدقاء والعائلة، بما في ذلك عائلتي بالميلاد.

بينما كنت ولدًا صغيرًا، كنت أعشق والدي، الذي كان رئيس هيئة العاملين في مركز "ويك فوريست المعمداني الطبي" في "وينستون- سيلم" لمدة عشرين عامًا. ولقد اخترت تخصص جراحة المخ والأعصاب لأتبع خُطاه على قدر استطاعتي، مع أنني أعلم أنني لن أستطيع أبدًا أن أكون مثله.

كان والدي رجل متدين جدًا. وقد خدم كجراح في القوات الجوية للجيش الأمريكي في أدغال غينيا الجديدة والفلبين أثناء الحرب العالمية الثانية. شهد الوحشية والمعاناة واختبرها بنفسه. فكان يخبرني عن الليالي التي كان يمضيها في إجراء العمليات الجراحية لمصابي المعارك في خيام بالكاد تصمد تحت الأمطار الموسمية التي تضربها، وكيف كان الحر والرطوبة ثقيلا الوطأة لدرجة أن الجراحين كانوا لا يرتدون سوى ملابسهم الداخلية ليتمكنوا من العمل في ظل هذه الظروف.

لقد تزوج والدي من حب حياته وابنة قائد وحدته، "بيتي" في أكتوبر ١٩٤٢، حيث كان يتدرب عمليًا في ساحة المحيط الهادي. وبنهاية الحرب، كان هو أحد أفراد المجموعة الأولى من قوات التحالف التي احتلت اليابان بعد أن ألقت الولايات المتحدة القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي. وبما أنه كان جراح الأعصاب الوحيد بالجيش الأمريكي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

في طوكيو، كان لا يمكن الاستغناء عنه. وعلاوةً على ذلك كان مؤهلاً لجراحات الأنف والأذن والحنجرة.

كل تلك المؤهلات منعته من أن يذهب إلى أي مكان لبعض الوقت. فلم يسمح له قائد فرقته الجديد أن يرجع إلى الولايات المتحدة إلى أن تصير الأوضاع "أكثر استقرارًا". وبعد عدة شهور من استسلام اليابانيين رسميًا على متن السفينة الحربية "ميسوري" في خليج طوكيو، تلقى والدي أخيرًا أوامر عامة تأذن له بالعودة إلى الوطن. لكنه علم أن قائد الوحدة الموجود بالموقع سوف يلغي تلك الأوامر إن رآها. لذا انتظر والدي حتى نهاية الأسبوع، إلى أن يرحل قائد وحدته للراحة، وقام بتسليم الأوامر لقائد الوحدة البديل. وأخيرًا استطاع والدي أن يركب سفينة عائدة إلى الوطن في ديسمبر ١٩٤٥، بعد أن عاد معظم زملائه الجنود إلى عائلاتهم بوقت طويل.

بعد عودته إلى الولايات المتحدة في بدايات ١٩٤٦، قام والدي بإنهاء تدريبه في جراحة المخ والأعصاب مع صديقه ورفيقه في الدراسة في كلية الطب بهارفارد "دونالد ماتسون"، الذي كان قد خدم في الساحة الأوروبية. لقد تدربا في مستشفى "بيتر بينت بريجهام" ومستشفى الأطفال في "بوسطن" على يد دكتور "فرانس انجراهام"، الذي كان أحد آخر الأطباء المقيمين الذين دربهم دكتور "هارفي كوشينج"، المعروف عالميًا بأب جراحة المخ والأعصاب الحديثة. وفي الخمسينات والستينيات، قام كادر جرَّاحي المخ والأعصاب، الذين أتقنوا حرفتهم في أرض المعارك في أوروبا والمحيط الهادي، بمواصلة عملهم ليحققوا نتائج لم يتعداها أحد من جراحي الأعصاب على مدى النصف قرن الذي تلاه، بما في ذلك جيلي أنا.

نشأ والديَّ أثناء الكساد فكان لديهما استعداد فطري للعمل. كان والدي يرجع دائمًا إلى المنزل لتناول العشاء العائلي في السابعة مساءً، مرتديًا بدلة ورابطة عنق، وأحيانًا مرتديًا ملابس الجراحة. ثم كان يرجع إلى المستشفى، آخذًا أحدنا نحن الأطفال معه لينهي فروضه المدرسية في مكتبه، بينما يقوم هو بجولته لتفقد مرضاه. بالنسبة لوالدي، كانت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الحياة والعمل مترادفان بشكل أساسي، وقد قام بتربيتنا على هذا الأساس. عادةً ما كان يجعلني أنا وأخواتي نعمل في فناء المنزل في أيام الآحاد. وإن أخبرناه أننا نريد أن نذهب إلى السينما، كان يجيب "إن ذهبتم إلى السينما، فينبغي أن يقوم شخص آخر بالعمل". كما كان والدي منافسًا شرسًا. في ملعب الأسكواش، كان يعتبر كل مباراة "معركة حتى الموت". وحتى في الثمانينات من عمره كان دائمًا ما يبحث عن منافس جديد، غالبًا أصغر منه بعقود.

كان أبًا له مطالب كثيرة، لكن في الوقت نفسه كان رائعًا. كان يعامل كل من يقابله باحترام وكان يحمل في جيب البالطو مفك ليربط أي مسمار غير محكم قد يصادفه أثناء جولاته في المستشفى. مرضاه، زملائه الأطباء، الممرضات، وكل العاملين في المستشفى كانوا يحبونه. كان والدي يعرف طريقه في الحياة بوضوح، سواء في إجراء العمليات الجراحية للمرضى، أو في المساهمة في تطوير الأبحاث، أو في تدريب جراحي المخ والأعصاب، أو في تحرير مجلة علم الأعصاب الجراحي. حتى بعد أن صار في الحادية والسبعين من عمره ولم يعد يستطيع إجراء عمليات جراحية، ظل متابعًا لأحدث التطورات في مجاله. وبعد وفاته عام ٢٠٠٤، كتب رفيقه لسنوات طويلة دكتور "ديفيد كيلي جونيور" : "سنظل نتذكر حماس ومهارة دكتور ألكسندر، التزامه، واهتمامه بالتفاصيل، شفقته، وأمانته، وتمكنه من كل ما يقوم به." لذلك ليست مفاجأة أنني أنا أيضًا كنت أعشقه كالكثيرين.

في مرحلة مبكرة جدًا من طفولتي، لا أتذكر متى كانت، أخبرني أبي وأمي أنهم تبنوني. لم يكونا والديَّ بالجسد أو الميلاد، لكنهما أحباني جدًا، كما لو كنت من لحمهم ودمهم. كبرت وأنا أعرف أنهم قد تبنوني في أبريل ١٩٥٤، عندما كان عمري أربعة شهور، وأن والدتي بالميلاد كانت في السادسة عشر من عمرها، طالبة في السنة الثانية من المرحلة الثانوية، ولم تكن متزوجة عندما أنجبتني عام ١٩٥٣. كان صديقها في السنة النهائية بلا إمكانيات مناسبة لإعالة طفل، فاتفقا على أن يتخليا عني، مع أنهما لم يريدا ذلك. عرفت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كل هذه الأمور مبكرًا جدًا لدرجة أنها صارت ببساطة مقبولة كجزء من شخصيتي. وقد أحببت والديَّ بالتبني بنفس المقدار الذي كنت سأحبهم به لو كانوا والديَّ بالدم، ومن الواضح أنهما كانا يكنان لي نفس المشاعر.

كانت أختي الأكبر "جين" متبناه هي أيضًا، لكن بعد أن تبنوني بخمسة أشهر، حملت والدتي، وأنجبت طفلة، هي أختي "بيتسي"، وبعد ذلك بخمسة سنوات، وُلدَت "فيليس" أختنا الصغرى. كنا إخوة فعلاً في كل المقاصد والغايات. ولقد أدركت أنه بغض النظر عن أصلي، فأنا أخيهم وهم أخواتي. نشأت في عائلة لا تحبني فقط بل وتؤمن بي أيضًا وتشجع أحلامي. بما في ذلك الحلم الذي استحوذ على تفكيري في المرحلة الثانوية ولم يتركني إلى أن حققته، وهو أن أصير جراحًا للمخ والأعصاب كوالدي.

لم أفكر في كوني ابنًا بالتبني خلال سنوات الجامعة ودراستي للطب. وإن كنت قد اتصلت بجمعية ملجأ الأطفال بشمال كارولينا عدة مرات، أتساءل إن كانت والدتي تريد جمع الشمل. لكن شمال كارولينا لديها بعض أكثر قوانين الولايات المتحدة حزمًا بشأن حماية سرية هوية المتبنى ووالديه الحقيقيين، حتى لو أرادوا بشدة أن يعيدوا الاتصال ببعضهم البعض. بنهاية العشرينات من عمري، كان تفكيري في الموضوع يتضاءل أكثر فأكثر. وبمجرد أن قابلت "هولي" وأنشأنا أسرتنا الخاصة، خرج الموضوع تمامًا من حيز تفكيري. أو ربما دُفن عميقًا جدًا داخلي.

عام ١٩٩٩، بينما كان "إبين الرابع" في الثانية عشر من عمره وكنا لا نزال نعيش في "ماساتشوستس"، كان "إبين" يعمل على مشروع "شجرة العائلة" بمدرسة "تشارلز ريفر" حيث كان في الصف السادس هناك. عندها عرف أنني متبنى، وأن بذلك لديه أقارب بالدم على هذا الكوكب لا يعرفهم شخصيًا، ولا حتى بالاسم. فحرك هذا المشروع بداخله، فضولا شديدًا لم يعلم حتى هذه اللحظة أنه يملكه.

فسألني إن كُنا نستطيع أن نبحث عن والديّ بالميلاد. فأخبرته أنني على مر السنوات كنت بين الحين والآخر أبحث بنفسي في هذا الموضوع، وأتصل بجمعية ملجأ الأطفال

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

بشمال كارولينا أسألهم عن آخر أخبار، وإن كان والدي ووالدتي بالميلاد يرغبان في التواصل معي، لعلمت الجمعية بهذا، لكني لم أسمع منهم أي رد.

لم يضايقني ذلك. "إنه أمر طبيعي تمامًا في مثل هذه الظروف" وأخبرت "إبين". "أن ذلك لا يعني أن والدتي الحقيقية لا تحبني، أو أنها لن تحبك إن رأتك. لكنها لا تريد ذلك، في الغالب لأنها تشعر أن لنا عائلتنا الخاصة وهي لا تريد أن تقف في طريق ذلك."

لكن "إبين" لم يتراجع عن الأمر، ففكرت أخيرًا أن أجاريه وكتبت إلى أخصائية اجتماعية تُدعى "بيتي" في ملجأ الأطفال كانت قد ساعدتني في طلبي من قبل. وبعد أسابيع قليلة، في مساء يوم جمعة مثلج في فبراير ٢٠٠٠، كنت أنا و"إبين الرابع" ذاهبين بالسيارة من "بوسطن" إلى "مين" للتزحلق على الجليد في عطلة نهاية الأسبوع، تذكرت أنه كان من المفترض أن أتصل بـ "بيتي" لأعرف آخر التطورات لديها. فطلبتها من هاتفي الخلوي، وأخبرتني أن والديَّ بالميلاد قد تزوجا بالفعل. وهنا خفق قلبي بقوة في صدري. وبالرغم من أنني كنت أعلم أن والديّ كانا حبيبين، إلا أنني دائمًا ما اعتقدت أنه بمجرد أن تخليا عني، أخذت حياة كل منهما طريقًا منفصلاً عن الآخر. في الحال تصور عقلي صورة والديّ بالميلاد، وبيتهما الذي أسساه في مكانٍ ما. البيت الذي لم أعرفه أبدًا. البيت الذي ليس لي مكان به.

ارتبك "إبين" حيث وجدني أركن السيارة بجانب الطريق وأطلب منها أن تتابع كلامها. حيث أخبرتني أنهما أنجبا ثلاثة أطفال آخرين، أختين وأخ. وأنها قد تواصلت مع الأخت الكُبرى، التي أخبرتها بأن الأخت الأصغر توفيت من سنتين. ومازال والديها حزانى على خسارتها. وأنها ترفض طلبه بالتواصل معهم."

سألني "إبين" بعد أن أنهيت المكالمة عما دار. فأخبرته بأنه لا جديد، وأن الوكالة مازالت لا تعرف الكثير، لكنهم مازالوا يسعون وربما يعرفون شيئًا فيما بعد.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تغيرت نظرتي لنفسي تمامًا بعد تلك المكالمة التليفونية. بالتأكيد، أنا ما زالت العالم، والطبيب، والأب، والزوج. لكنني أيضًا شعرت لأول مرة على الإطلاق، أنني يتيم. شخص متروك، غير مرغوب فيه بدرجة كبيرة. مقتطع من أصله. ما اعتدت أبدًا أن أرهن هويتي يومًا بشيء فقدته ولا أستطع أبدًا أن استعيده. لكن فجأة كان هذ هو الأمر الوحيد الذي أستطيع أن أراه فيما يتعلق بي.

على مدار الشهور القليلة التي أعقبت هذا، سقطت في هوة من الحزن، كادت تهدد كل ما عملت بكد لأحققه في حياتي حتى تلك اللحظة. وما زاد الأمر سوءًا هو عدم قدرتي على معرفة السبب في موقفي هذا تجاه نفسي. لقد صادفت ضعفات ومنعطفات كثيرة داخلي من قبل، لكنني كنت أراها، وأعالجها. ففي كلية الطب وفي أيامي الأولى كجراح، على سبيل المثال، كنت من أصحاب ثقافة قبول الإسراف في شرب الخمر، في الظروف المناسبة. لكن في ١٩٩١ بدأت ألاحظ أنني كنت أتطلع إلى يوم عطلتي، وشرب الخمر الذي يصاحبه، بلهفة زائدة. فقررت أن الوقت قد حان لأمتنع تمامًا عن شرب الكحوليات. لم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق، ولم أجتز تلك الأيام الأولى من الإقلاع عن الخمر إلا بمساندة عائلتي. وها أنا أواجه مشكلة أخرى، لا يُلام فيها أحد إلا أنا. إذ أُسِّلم نفسي لحزنٍ مفرطٍ. في حين أنني إذا اخترت أن أطلب المساعدة فسوف أجدها. لم يبدو صائبًا أن معلومة تخص الماضي، تستطيع أن تجعلني أنحرف تمامًا عن طريقي عاطفيًا ومهنيًا.

كنت في صراع، وكنت أراقب في أسى كم صار دوري كطبيب، وأب، وزوج أكثر صعوبة في تأديته. عندما وَجَدَت "هولي" أنني لم أكن في أفضل حالاتي، رتبت أن نذهب إلى مجموعة جلسات الاستشارة الزوجية، ومع أنها لم تكن تفهم السبب فيما يحدث إلا جزئيًا، إلا أنها سامحتني على سقوطي في هذه الهوة من اليأس وقامت بكل ما تستطيع لتخرجني منها. وكان لاكتئابي عواقبه في عملي. وبالطبع علم والداي بهذه العواقب، ومع أنني أعلم أنهما قد سامحاني أيضًا، لكن كاد يقتلني أن مهنتي في جراحة المخ والأعصاب

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الأكاديمية كانت في تدهور، وكل ما كان في استطاعتهم أن يفعلوه هو أن يراقبوا الوضع من بعيد كمتفرجين. فبدوني لا تملك عائلتي القدرة على مساعدتي.

ثم، ادركت شيئًا آخر أهم بدأ يجرفه هذا الحزن الجديد الذي فرض نفسه علي. لقد جرف معه آخر أمل لديَّ بأن يكون هناك كيانٌ ما يحبني فعلاً ويهتم بي، وأن صلواتي تُسمع، ويُستجاب لها أيضًا. بعد تلك المكالمة أثناء العاصفة الثلجية، اختفت تمامًا فكرة وجود إله محب لي بشكل شخصي، كعضو يذهب إلى الكنيسة بعقيدة تؤمن بالله.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١١. نهاية الانحدار

ظللَّت معظم السنوات السبعة التالية أعاني في عملي وفي حياتي العائلية. ولمدة طويلة، لم يكن حتى المقربين لي يدركون سبب المشكلة. لكن بالتدريج، ومن خلال ملاحظات عابرة نطقت بها، تمكنت "هولي" وأخواتي من فهم الموضوع.

وأخيرًا، في نزهة في الصباح الباكر على شاطئ بجنوب كارولينا أثناء عطلة عائلية في يوليو ٢٠٠٧، فتحت كلٍ من "بيتسي" و"فيليس" الموضوع. وسألتني "فيليس": "هل فكرت في أن تكتب خطابًا آخر لعائلتك بالميلاد؟"

قالت "بيتسي": "نعم، أنت لا تعرف، ربما تغيرت الأوضاع الآن." كانت "بيتسي" قد أخبرتنا مؤخرًا أنها تفكر في أن تتبنى طفل، لذلك لم أتفاجأ لتطرقهم لهذا الموضوع. ومع ذلك، كان جوابي الفوري- عقليًا أكثر منه لفظيًا: "لا، ليس مرة أخرى!" لقد تذكرت هوة الحزن الذي واجهته قبل سبع سنوات، لكنني علمت أنهما فتحتا الحوار من أجلي. لقد علمتا أنني كنت أعاني، وأخيرًا اكتشفتا السبب، وأرادتا مني أن أُقدِم على حل المشكلة. وأكدتا لي أنهما سترافقانني في هذا الطريق، وأنني لن أكون وحدي في هذه الرحلة، كما كنت من قبل. لقد كنا فريق.

لذلك في أوائل أغسطس ٢٠٠٧، كتبت خطاب من مجهول إلى أختي بالميلاد، المسئولة عن جميعهم، وأرسلته إلى "بيتي" في جمعية ملجأ الأطفال بشمال كارولينا لترسله إليها. وكان فيه:

أختي العزيزة

أنا مهتم بالتواصل معكِ، ومع أخينا ووالدينا. فبعد حديث طويل مع أختي وأمي بالتبني بهذا الشأن، أعاد تشجيعهم واهتمامهم اضرام رغبتي في معرفة المزيد عن عائلتي بالميلاد.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ابناي، في التاسعة والتاسعة عشر من عمرهما، مهتمان بمعرفة نسبهما. وسنكون نحن الثلاثة وزوجتي ممتنين لكِ إن تمكنت من تقديم أي معلومات لنا عن العائلة، إن لم يزعجك ذلك. بالنسبة لي، يهمني أن أعرف بعض الأمور المتعلقة بحياة والديَّ بالميلاد في شبابهما، كما أود أن أعرف ما هي اهتماماتكم وكيف هي شخصياتكم جميعًا؟

أتمنى أن ألقاكم قريبًا، وأن تبادلوني هذا الشوق. وأرجو أن تعلمي أنني أقدر السرية التي تودين الحفاظ عليها. لقد حظيت بعائلة رائعة بالتبني وأقدر قرار والديَّ بالميلاد في شبابهما. لكن رغبتي صادقة في التعرف عليكم وأحترم أي حدود تشعرون أنها ضرورية.

أقدر بشدة انشغالك الموضوع.

المُخلِص،

أخوكِ الكبير.

بعد أسابيع قليلة تلقيت رسالة من جمعية ملجأ الأطفال. كانت من أختي بالميلاد. تقول فيها "نعم، نود أن نقابلك."

قانون ولاية شمال كارولينا يمنع من في موقفها من أن تكشف أي معلومات شخصية لي، لكن بالتحايل على هذه القوانين، قدمت لي أول حفنة من المعلومات بشأن عائلتي بالميلاد التي لم أقابلها بعد. أخبرتني أن والدي بالميلاد كان طيارًا بحريًا في فيتنام، مما أثر فيَّ جدًا. فلا عجب إذًا أنني أحببت دائمًا القفز من الطائرات وقيادة الطائرات الشراعية. وقد صُدمت أكثر عندما علمت أن والدي بالميلاد كان أيضًا متدربًا كرائد فضاء في وكالة ناسا أثناء رحلات أبولو في منتصف الستينات، فأنا كنت أحلم بالتدرب كمتخصص في الرحلات على مكوك فضائي عام ١٩٨٣. بعد ذلك عمل والدي بالميلاد طيارًا في شركتي الخطوط الجوية "بان آم" و"دلتا".

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أخيرًا في أكتوبر ٢٠٠٧، التقيت بوالديَّ بالميلاد، "آن" و"ريتشارد"، وإخوتي بالميلاد "كاثي" و"ديفيد". أخبرتني "آن" القصة كاملة. كيف أنها عام ١٩٥٣ أمضت ثلاث شهور في بيت فلورنس كريتيدين للأمهات غير المتزوجات، وهو يقع بجوار مستشفى شارلوت التذكاري. كل الفتيات هناك كان لديهن أسماء كودية، ولأنها كانت تحب التاريخ الأمريكي اختارت أمي اسم "فيرجينيا دير" اسم أول طفلة وُلِدت لمستوطنين إنجليز في العالم الجديد. فكانت معظم الفتيات تدعوها "دير". ولأنها كانت في السادسة عشر من عمرها، كانت أصغر فتاة هناك.

أخبرتني أن والدها كان مستعدًا لعمل أي شيء لمساعدتها عندما علم بورطتها. فقد كان مستعدًا أن ينتقل بكل العائلة إلى مكانٍ آخر إن اضطره الأمر. لكنه كان عاطلاً عن العمل آنذاك، وسيشكل مجيء طفل إلى المنزل عبئًا ماديًا ثقيلاً، دون ذكر كل المشاكل الأخرى.

وقد نصحه أحد أصدقائه بطبيب يعرفه في الجنوب في "ديلون" بجنوب كارولينا، يستطيع أن "يصلح الأمور". لكن والدتها لم تسمح حتى بالحديث في هذا الأمر.

وأخبرتني "آن" كيف أنها كانت تتأمل النجوم تلمع بقوة وقت الرياح العاصفة في ليلة ميلادي، تلك الليلة الباردة من ديسمبر عام ١٩٥٣. وكيف كانت تسير في الشوارع الخالية تحت السحب المنخفضة، سريعة الحركة. لقد أرادت في تلك الليلة أن تكون وحدها، مع القمر والنجوم وطفلها الذي سيولد قريبًا، الذي هو "أنا".

في العادي تمكث الفتيات في بيت كريتيدين أسبوعين بعد أن تنجب أولادهن، ثم ترجع إلى بيوتهن وتتابعن حياتهن من حيث تركنها. فخطر ببال "آن" فكرة جميلة عندما دخلت ردهة المستشفى. وهي أنها إن أنجبت فعلاً في تلك الليلة، وتركوها ترحل بعد أسبوعين، فتكون فرصة رائعة لتأخذني للمنزل وتقضي معي هناك عيد الميلاد المجيد.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أخبرتني "آن" أن دكتور كروفورد كان قد أنتهى للتو من عملية ولادة أخرى، ويبدو أنه كان مرهقًا للغاية. ووضع على وجهها شاش مشبع بالإتير (مخدر) لتخفيف الألم، لذلك كانت نصف واعية عندما وضعت أخيرًا طفلها الأول في ٤٢: ٢ صباحًا. وأنها أرادت بشدة أن تحملني وتقبلني، وأنها لن تنسى أبدًا صوت بكائي بينما غلبها الإرهاق والمخدر فغابت عن الوعي. وقد أجمعت كل الممرضات على أنني كنت أجمل طفل في الحضانة . فكانت آن تشعر بفخر شديد.

بقدر ما أرادت "آن" أن تحتفظ بي، إلا أنه سريعًا ما صدمتها الحقيقة المُرة بأنها لن تستطيع ذلك. إذ كان "ريتشارد" يحلم بدخول الجامعة، لكن ذلك الحلم لن يوفر لي الطعام. وخاصة أنني كنت قد بدأت أمتنع عن الرضاعة. وفي اليوم الحادي عشر، تم إدخالي المستشفى بسبب التأخر في النمو. وأمضيت أول عيد ميلاد (كريسماس) لي والأيام التسعة التالية في مستشفى بـ"شارلوت." فاستقلت "آن" الحافلة في رحلة لمدة ساعتين لتعود إلى مدينتها الصغيرة. وأمضت عيد الميلاد هناك مع والديها، وأخواتها وأصدقائها، الذين لم ترهم خلال الثلاثة شهور السابقة. كل ذلك بدوني.

وكان أول تدريب لي على حياتي المنفصلة عن أمي قد تم في تلك الأيام التي كنت أتعافى فيها لينتظم أكلي بشكل طبيعي. حينها شعرت "آن" أن الأمر بدأ يخرج من بين يديها، وأنهم لن يسمحوا لها بالاحتفاظ بي. وعندما اتصلت بالمستشفى بعد رأس السنة مباشرةً، أخبروها أنه قد تم إرسالي إلى جمعية ملجأ الأطفال في "جرينزبورو". فقالت: "تم إرساله مع متطوع؟ هذا ليس عدلاً!"

أمضيت الثلاثة أشهُر التالية أعيش في مهجع للرضع مع العديد من الأطفال الآخرين الذين لم تستطع أمهاتهم أن تحتفظ بهم. كان مهدي في الطابق الثاني من منزل أزرق رمادي اللون على الطراز الفيكتوري كان قد تم التبرع به للجمعية، وصفته "آن" وهي تضحك بأنه كان مكان لطيف جدًا كأول بيت لي، مع أنه في النهاية كان مجرد مهجع للرضع. كانت "آن" تستقل الحافلة لثلاث ساعات كي تزورني ست مرات خلال الشهور

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

القليلة التالية، وهي تحاول بكل الطرق أن تجد خطة تستطيع أن تجعلها تنجح في إبقائي معها.

جاءت مرة مع والدتها وأخرى مع "ريتشارد"، لكن الممرضات لم يسمحوا له بدخول الغرفة وجعلوه ينظر إليَّ عبر الزجاج، كما لم يسمحوا له بحملي.

في نهاية شهر مارس عام ١٩٥٤، صار واضحًا أن الأمور لن تسير كما تريد "آن". وسيكون عليها أن تتخلى عني. فأخذت هي ووالدتها الحافلة إلى "جرينزبورو" مرة أخيرة.

وأخبرتني "آن" أنه كان عليها أن تحملني وتنظر في عينيَّ، وتحاول أن تشرح لي الأمر كله. رغم أنها كانت تعلم أنني سأبتسم مهما كان ما تقوله، لكنها شعرت أنها تدين لي بتفسير موقفها. فاحتضنتني مرة أخيرة، وقبّلتني. وأكدت "آن" أنها ما زالت تتذكر رائحتي الجميلة في تلك الليلة، كما لو كان بالأمس.

ثم قالت: "دعوتك باسمك بالميلاد وقلت لن تعرف أبدًا كم أحبك، وسأظل أحبك إلى الأبد، حتى يوم مماتي. كما قلت، يا الله، من فضلك اجعله يعلم كم هو محبوب، أنني أحبه وسأظل دائمًا أحبه. لكن لم تكن هناك طريقة لأعرف إن كانت صلاتي ستُستجاب أم لا". فإجراءات التبني في الخمسينات كانت نهائية وسرية للغاية. لا تراجع فيها ولا تنازلات. وفي بعض الحالات كانوا يقومون بتغيير تاريخ الميلاد في السجلات لإعاقة أي محاولات لكشف حقيقة أصل الطفل. ولا يترك أي شيء يمكن تعقبه. وكانت تلك الاتفاقات تحميها قوانين صارمة تضمن طي الموضوع ونسيانه تمامًا والمُضي قُدمًا في الحياة. على رجاء أن يكون الشخص قد تعلم من تلك التجربة.

أكملت "آن" حديثها قائلة: "قبَّلتَك مرة أخيرة، ووضعتك برفق في مهدك. ولففتك ببطانيتك الزرقاء الصغيرة، ونظرت نظرة أخيرة في عينيك الزرقاء، وقبَّلَت أصبعك ثم لمست جبهتك. وكانت آخر كلماتي لك: "ريتشارد مايكل. أنا أحبك."

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تابعت "آن" وأخبرتني أنها بعد أن تزوجت هي و"ريتشارد" وأنجبوا باقي أولادهم، تزايد اهتمامها لتعرف ماذا صار لي. وبالإضافة إلى أن "ريتشارد" كان طيارًا في البحرية وطيارًا في شركة طيران، كان محاميًا، فتصورت "آن" أن ذلك سيتيح له كشف هويتي بالتبني. لكن "ريتشارد" كان أكثر نبلاً من أن يتراجع عن اتفاقية التبني التي تمت عام ١٩٥٤، ولم يتطرق للموضوع. وفي بداية السبعينات، بينما كانت حرب "فيتنام" مازالت مُحتدمة، لم تستطع "آن" أن تُخرج تاريخ ميلادي من تفكيرها. ففي في ديسمبر ١٩٧٢، كنت سأتم تسع عشرة سنة. فكانت مشغولة هل سأذهب إلى الحرب؟ إن حدث ذلك، ماذا سيصيبني هناك؟

في ذلك الحين، كانت خطتي هي أن ألتحق بالبحرية كطيار. إذ كان نظري ٢٠/ ١٠٠، لأن القوات الجوية تتطلب ٢٠/ ٢٠ بدون تصحيح. وكان هناك شائعة في ذلك الوقت أن البحرية ستقبل حتى بنا نحن أصحاب الرؤية ٢٠/ ١٠٠ وتعلمنا الطيران. لكن ذلك بدأ يقلل من الكفاءة اللازمة لحرب فيتنام، فلم ألتحق بالبحرية أبدًا. وتوجهت إلى كلية الطب عوضًا عن ذلك. في ربيع عام ١٩٧٣، كانت عائلتي تشاهد الناجين من الأسر من "هانوي هيلتون" وهم ينزلون من الطائرات العائدة من شمال فيتنام. وكانوا مكسوري الفؤاد إذ لم ينزل من تلك الطائرات معارفهم من الطيارين، أكثر من نصف دفعة "ريتشارد" في البحرية لم يعودوا، وفكرت "آن" أنني ربما قد قُتلت أنا أيضًا هناك.

وبمجرد أن دَخَلَت هذه الفكرة إلى عقلها لم تخرج أبدًا، وظلت لسنوات مقتنعة بأنني قد مُت ميتة مروعة في حقول الأرز بفيتنام. وبالتأكيد كانت ستتفاجأ إن عرفت أنني كنت في ذلك الوقت على بُعد أميال قليلة منها في "شابل هيل"!

في صيف ٢٠٠٨، التقيت بأبي بالميلاد، وأخيه "بوب" (عمي)، وزوج أخته "بوب" أيضًا في شاطئ "ليتشفيلد"، "جنوب كارولينا". كان أخيه "بوب" بطل في البحرية نال الكثير من

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الأوسمة أثناء الحرب الكورية وكان طيار تجريبي في بحيرة الصين[٣]. بينما حقق زوج أخته "بوب" رقم قياسي في السرعة أثناء عملية "sun run" في ١٩٥٧، رقم مرحلي حول العالم في مقاتلات فودو النفاثة F-101 حيث كان يسابق الشمس بالدوران حول الأرض بمتوسط سرعة أكثر من ١٠٠٠ ميل في الساعة.

كنت أشعر وكأنه أسبوع البيت القديم بالنسبة لي. كانت تلك اللقاءات مع والديَّ بالميلاد تعلن نهاية ما أدعوه سنوات عدم المعرفة. أدركت أخيرًا، أنها كانت سنوات تحمل لوالديَّ نفس الألم الرهيب الذي كانت تحمله لي.

كان هناك جرح واحد فقط لم يُشفى: خسارة أختي بالميلاد "بيتسي" قبل ذلك بعشر سنوات عام ١٩٩٨[٤]. أخبرني الجميع أنها كانت ذات قلب كبير، وعندما لم يكن لديها عمل في مركز أزمات الاغتصاب حيث كانت تمضي معظم وقتها، عادةً ما تجدها تُطعم وتهتم بمجموعة من الكلاب والقطط الضالة. كانت "آن" تدعوها "ملاك حقيقي". ووعدتني "كاثي" أن ترسل لي صورتها. "كان لـ "بيتسي" صراعها مع الكحوليات مثلي، وبسبب خسارتها، أدركت مرة أخرى كم كنت محظوظًا لأنني تخلصت من هذه المشكلة. كنت أتمنى لو كنت استطيع لقاء "بيتسي"، لطمئنتها، وأخبرتها أن تلك الجروح من الممكن أن تُشفى، وأن كل شيء كان سيكون على ما يرام.

منذ لقائي بوالديَّ بالميلاد بدأت لأول مرة في حياتي أشعر أن كل شيء، إلى حدٍ ما، بخير فعلاً. العائلة مهمة جدًا، وأنا قد استعدت عائلتي، أو معظمها. كان هذا أول درس لي، وهو أن معرفة أصل الإنسان من الممكن أن تُجمِّل حياته بطرق غير متوقعة. فقد سمحت لي معرفة من أين أتيت، وأصولي البيولوجية، بأن أرى وأقبل أمورًا عن نفسي لم أحلم أبدًا أن أتمكن من قبولها. ومن خلال لقائي بهم، استطعت أن أتخلص من

---

[٣] مركز اختبار الأسلحة البحرية في صحراء كاليفورنيا، حيث كان يتقن نظام قذائف "سايدويندر" ويُحلق بمقاتلات F-104.

[٤] نعم نفس اسم أحد أخواتي بالتبني، وكلتاهما تزوجتا من شخص يُدعى "روب"، لكن تلك قصة أخرى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الهاجس المُلِّح الذي كنت أحمله دون أن أُدرك، القائل أنه مهما كان أَصلي، بيولوجيًا، فأنا لست محبوبًا أو مهمًا. لقد اعتقدت أنني لا أستحق أن أُحِب، أو حتى أن أوجد. واكتشافي أنني محبوب، منذ البداية، بدأ يداويني لأعمق درجة يتصورها أحد. فشعرت بكمال لم أشعر به من قبل.

لكن، كان السؤال الآخر - الذي اعتقدت أنني حصلت على إجابته في السيارة مع "إبين" في ذلك اليوم - مازال قائمًا. وهو إن كان هناك حقًا إلٰه محب، وكانت الإجابة في عقلي لا تزال "لا".

ولم أعاود التفكير في ذلك السؤال إلى أن أمضيت سبعة أيام في غيبوبة. واكتشفت إجابة أيضًا غير متوقعة تمامًا هناك...

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٢. المركز

جذبني شيئًا. ليس كأن شخصًا يمسك بذراعي، بل شيئًا أكثر لُطفًا، وأقل مادية. كان الأمر يشبه انغماس الشمس خلف سحابة فتشعر بتغير فوري في مزاجك كرد فعل لذلك.

كنت أتراجع، مبتعدًا عن المركز. وكانت ظلمته الداكنة المضيئة تتضاءل بينما تظهر المزارع الخضراء التي للبوابة بكل جمالها. وعندما نظرت إلى أسفل، رأيت الفلاحين مرة أخرى، الأشجار، الجداول المتلألئة والشلالات، وكذلك الكائنات الملائكية التي تتحرك في مسارات بالأعلى.

كانت رفيقتي موجودة أيضًا. بالطبع كانت موجودة طوال الوقت، خلال رحلتي إلى داخل المركز، على هيئة كرة النور التي تشبه الجرم السماوي. لكنها الآن، عادت مرة أخرى، إلى الشكل البشري. مرتدية نفس الرداء الجميل، وجعلتني رؤيتها مرة أخرى أشعر كطفل تائه في مدينة كبيرة وغريبة عنه وقد رأى فجأةً وجهًا مألوفًا. لقد كانت عطية هائلة!. تذكرت الآن تلك الرسالة التي وصلتني بلا كلمات عند مدخل الظلمة إلى المركز "سوف نجعلك ترى أمورًا كثيرة، لكنك ستعود.". والآن فقط أدرك المقصود "بالعودة".

كان المقصود العودة إلى العالم الذي أطلقت عليه "منظور دودة الأرض" حيث بدأت هذه الرحلة الطويلة. لكن المكان كان مختلفًا هذه المرة. فالنزول إلى الظلمة مع علمي الكامل بما يقع فوقها، جعلني لا أشعر بالخوف الذي شعرت به عندما كنت هناك للمرة الأولى. وبينما يخفت صوت الموسيقى الرائعة للبوابة عاد الدق النابض لهذا العالم السُفلي، لكنني سمعت ورأيت تلك الأشياء كما يرى إنسان راشد مكان شعر بالخوف منه في وقتٍ ما لكنه لم يعد خائفًا منه. الظلمة، الوجوه التي تظهر وتختفي، الجذور الشبيهة بالشرايين النازلة من أعلى، لم تعد تخيفني الآن، لأنني فهمت- بالطريقة التي بلا كلمات والتي فهمت بها كل شيء- أنني لست من هذا المكان، لكنني أزوره فقط.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لكن لماذا أزوره مرة أخرى؟

جاءتني الإجابة في نفس اللحظة - بالطريقة غير الكلامية التي تصلني بها الإجابات في العالم المضيء بالأعلى - هذه المغامرة كلها، كانت جولة، نظرة عامة على الجانب الروحي غير المرئي للوجود. ومثل كل الجولات الجيدة، شملت كل المناطق والمستويات.

كانت طبيعة الوقت في تلك العوالم تفوق ما أعرفه على هذه الأرض. تأمل كيف يكون الوقت في الأحلام. في الحلم، تحمل كلمة "قبل" و"بعد" دلالات مُخادعة. فمن الممكن أن تكون في جزء من الحلم وتعرف ماذا سيحدث، حتى لو لم يأتي بعد. كان "وقتي" هناك في تلك العوالم مشابهًا لذلك. لكنني أؤكد على أن ما كان يحدث لي ليس به أيّة تشوش أو غموض كذاك الذي في أحلامنا الأرضية، سوى في المراحل الأولية جدًا عندما كنت لاأزال في العالم السفلي.

كم من الوقت أمضيت هناك؟ مرة أخرى لا أعرف بالتحديد- ولا توجد طريقة لقياسه. لكن ما أعرفه هو أنه بعد عودتي إلى العالم السفلي، تطلب الأمر وقتًا طويلاً لكي أُدرك أنني أستطيع أن أتحكم إلى حدٍ ما في حركتي، وأنني لم أعد مُحاصرًا في هذا العالم السفلي. وأنني بجهد منضبط، أستطيع أن أرتفع مرة أخرى إلى السهول العَلويَّة. وفي لحظة معينة في الأعماق المظلمة، وجدت نفسي أتمنى عودة اللحن المغزلي. وبعد مجهود كبير لأتذكر اللحن، استدعى وعيي الموسيقى الرائعة، وكرة الضوء المغزلية التي تصدر منها الموسيقى. فانطلقت بسرعة، مرة أخرى، عبر الوحل الهلامي، وبدأت أرتفع.

لقد اكتشفت ببطء أنه في العوالم التي بالأعلى، معرفة الشيء والتفكير به هو كل ما تحتاجه لتتحرك تجاهه. فتفكيري في النغم المغزلي كان سببًا في ظهوره، واشتياقي إلى العوالم العَلويَّة كان يأخذني إلى هناك. وكلما زاد تآلفي مع العالم العلوي، كلما كان أسهل بالنسبة لي أن أرجع إليه. وخلال المدة التي أمضيتها خارج جسدي، كانت رحلتي بين عالم "منظور دودة الأرض" المظلم الموحل، وبين الخضار المضيء للبوابة، وداخل المركز الأسود ذو الظلمة المقدسة مرات عديدة. لا أستطيع أن أحدد كم مرة دخلت كل منهم، لكن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كل مرة كنت أصل فيها إلى المركز، كنت أدخل إلى مكان أعمق مما قبل، وكنت أتعلم أكثر، بنفس الطريقة غير الكلامية التي يتم بها التواصل في هذه العوالم التي تعلو عالمنا هذا.

لا يعني ذلك أنني رأيت كل تلك الأكوان العلوية، لا في رحلتي الأصلية في عالم "منظور دودة الأرض" ولا أثناء ارتفاعي نحو المركز، ولا حتى في الرحلات التالية لها. ولكن في الحقيقة، كان أهم ما تعلمته في المركز في كل مرة كنت أرجع فيها إليه، هو استحالة أن أفهم كل ما كان موجودًا، سواء المادي المرئي منه أو بالأحرى الروحي غير المرئي منه، لهذا العدد الذي لا يحصى من الأكوان الأخرى التي توجد أو وُجِدَت على الإطلاق.

لكن لم يكن كل هذا يشغلني، كل ما كان ما يشغلني فعلاً، ما تلقيته في البداية من رفيقتي الجميلة على جناح الفراشة عند دخولي الأول إلى البوابة. وجاء في ثلاث دفعات، وسأحاول مرة أخرى أن أُعبِّر عنه بالكلمات (لأنه بالطبع وصلني بلا كلمات) وهو:

- أنت محبوب ومعتز بك كثيرًا إلى الأبد.

- يجب ألا تخاف شيئًا.

- لا يمكنك أن تخطئ بشيء.

وإن كان عليَّ أن أختصر هذه الرسالة في جملة واحدة، ستكون كما يلي: "أنت محبوب." وإن كان عليَّ أن أختصرها أكثر، إلى كلمة واحدة، ستكون حتمًا: "المحبة".

المحبة، بلا شك، هي أساس كل شيء. ليست بمعناها المجرد صعب الفهم، بل المحبة اليومية التي يعرفها الجميع- المحبة التي نشعر بها عندما ننظر إلى أزواجنا وأولادنا، أو حتى حيواناتنا. بأنقى وأقوى أشكالها، هذه المحبة ليست غيورة ولا أنانية، بل غير مشروطة. هذه هي حقيقة الحقائق المجيدة التي لا يمكن تصورها، التي تسكن وتحيا في مركز كل شيء موجود أو سيوجد.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

والآن وقد رجعت من ذلك المكان، لا يستطيع أحد أو شيء أن يقنعني أن هذه ليست أهم حقيقة متعلقة بالمشاعر في الكون، بل وهي أيضًا أهم حقيقة علمية كذلك.

لقد تحدثت لعدة سنوات حتى الآن عن خبرتي هذه، كما التقيت مع آخرين درسوا أو مروا بتجارب مشابهة. وأنا أعلم أن تعبير "محبة غير مشروطة" يتم تداوله بين تلك الأوساط. لكن قليلون فقط هم من يستطيعون أن يفهموا معناه الحقيقي؟

أَعرف بالطبع لماذا يتم تداوله بهذه الكثرة. لأن العديد من أولئك الذين مروا بنفس التجربة التي مررت بها. عندما رجعوا إلى هذه الأرض، لم يجدوا أمامهم سوى الكلمات فقط، ليعبروا بها عما اختبروه وما رأوه من أمور تعجز الكلمات عن التعبير عنها. كما لو كنت تحاول كتابة قصة بنصف الحروف الأبجدية.

العائق الأولي الذي يتوجب على معظم مختبري الموت أن يجتازوه، ليس هو كيفية التأقلم ثانية مع قيود العالم الأرضي- مع أن ذلك بالتأكيد يشكل تحدي كبير- بل هو كيفية التعبير عن المعنى الحقيقي للمحبة الذي اختبروه هناك.

كما كانت دائمًا لـ"دوروثي" في قصة "الساحر أوز" القدرة على العودة إلى المنزل، كذلك نحن نملك القدرة على تكوين ارتباط بذلك العالم العلوي الأنشودي الرائع. لكننا فقط ننسى أننا نملك تلك القدرة، لأنه أثناء وجودنا في الجسد، يقوم العقل بحجب تلك الأبعاد الكونية الأكبر، تمامًا كما تحجب أشعة الشمس النجوم في الصباح. تخيل كم تكون نظرتنا للكون قاصرة لو لم نرى أبدًا سماء الليل المرصعة بالنجوم. فنرى فقط ما يسمح لنا العقل برؤيته. فالعقل، خاصةً الجانب الأيسر منه حيث الجزء المسئول عن اللغة والمنطق، هو الذي يُولِّد شعورنا بالعقلانية والشعور بالذات؛ ويشكل ذلك عائقًا في طريق معرفتنا وخبرتنا بما هو أسمى.

لذلك فنحن نواجه الآن تحديًا حاسمًا أثناء حياتنا على الأرض. إذ نحتاج أن نمتلك تلك المعرفة الأكبر بينما نحن نعيش على الأرض، حيث تعمل عقولنا بكامل قوتها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فالعلم الذي كرست له معظم حياتي، لا يتعارض مع ما تعلمته هناك بالأعلى. بينما يعتقد العلميون أنه يتعارض، لأنهم محصورون في النظرة المادية للعالم، فيروا أن العلم والروحانية لا يجتمعان معًا.

هم مخطئون. ونشرهم لهذه الأفكار الخطيرة على مستوى العالم هو سبب كتابتي لهذا الكتاب، لذا يعجزون عن فهم كل الألغاز المرتبطة بقصتي، كيف أصبت بالمرض، أو كيف تمكنت أن أكون واعيًا في عالم آخر أثناء أسبوع غيبوبتي، وكيف بطريقةٍ ما استعدت صحتي تمامًا، فهي أمور ثانوية تمامًا في نظرهم.

المحبة غير المشروطة التي اختبرتها في رحلتي كانت أهم اكتشاف اكتشفته، أو سأكتشفه على الإطلاق، وبقدر صعوبة اكتشاف الدروس الأخرى التي تعلمتها وأنا هناك، بقدر ما أُدرك في قلبي أن نشر هذه الرسالة الأساسية جدًا- البسيطة جدًا لدرجة أن معظم الأطفال سيقبلونها بسهولة- هي أهم مهمة لي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٣. الأربعاء

على مدى يومين، كان يوم "الأربعاء" هو اليوم الذي ينتظره الأطباء لكي يتحدثوا عن مدى وجود فرصة لنجاتي من عدمها. أو على الأقل لظهور أي تحسن. والآن ها هو يوم الأربعاء، ولم يظهر أي بصيص من التحسن في حالتي.

ظل "بوند" منذ أن دخلت في الغيبوبة يوم الاثنين، يتساءل: "متى أستطيع أن أرى والدي؟". وهو سؤال طبيعي لطفل في العاشرة من عمره يرى والده في المستشفى. نجحت "هولي" في إخفاء الحقيقة عنه لمدة يومين، لكن في صباح الأربعاء، قررت أنه حان الوقت لمواجهته بالحقيقة.

عندما أخبرت "هولي" "بوند"، مساء يوم الاثنين، أنني لن أرجع من المستشفى في تلك الليلة لأنني ما زلت "مريضًا"، فهم "بوند" الأمر بحسب ما كانت تعنيه له دائمًا كلمة "مريض"، حتى هذه اللحظة من سنوات عمره العشرة: سعال، التهاب بالحلق- وربما صداع. ومما رآه صباح يوم الاثنين أدرك كم قد يكون الصداع مؤلمًا. لكن عندما أحضرته "هولي" أخيرًا إلى المستشفى في مساء ذلك الأربعاء، كان ما زال يأمل في أن يرى شيئًا مختلفًا تمامًا عما رآه في البيت.

لقد رأى "بوند" جسدًا يحمل شبهًا بعيدًا لمن كان يَعرف أنه والده. عندما يكون الإنسان نائمًا، تستطيع أن تنظر إليه وتُدرك أن هناك شخصًا ما زال موجودًا داخل هذا الجسد.. لكن الوضع يختلف عندما يدخل الإنسان في غيبوبة، إذ يكون الجسد موجودًا، لكن بدون جوهره.

دائمًا ما كان "إبين الرابع" و"بوند" مقربين جدًا من بعضهما البعض، منذ اللحظة التي أسرع فيها "إبين" إلى داخل جناح الولادة ليحتضن أخيه الجديد "بوند" بعد ولادته. هكذا استقبل "إبين" "بوند" في المستشفى في اليوم الثالث من غيبوبتي وحاول أن يصور له الوضع ببساطة فصور له الأمر وكأنه معركة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فقال لـ "بوند": "دعنا نرسم صورة لما يحدث لأبينا، حتى متى فاق وتحسن يراها."

وبذلك وضعا ورقة برتقالية كبيرة على أحد موائد مطعم المستشفى، ورسما تصورًا لما كان يحدث داخل جسدي الذي في غيبوبة. فرسما كرات دمي البيضاء، ترتدي ملابس حربية وتحمل سيوف، وتدافع عن منطقة مخي التي تحت الحصار. ورسما الإيكولاي الغازية تحمل سيوفها وترتدي ملابس عسكرية مختلفة بعض الشيء. وكان هناك قتال عنيف، وتتناثر جثث القتلى من الجانبين في كل مكان.

كان هذا تصور دقيق إلى حدٍ ما، بحسب فهمهما. الأمر الوحيد الذي لم يكن دقيقًا، بالإضافة إلى أنه مبسط جدًا مقارنة بالواقع الفعلي المُعقد داخل جسدي، كان بخصوص طرفي المعركة. ففي تصور "إبين" و"بوند"، كانت المعركة بين طرفين متكافئين، كلاهما يصارع الأخر، وحتمًا أن كرات الدم البيضاء ستنتصر في النهاية. لكن بينما كان "إبين" يحاول أن يشارك "بوند" في هذا التصور الساذج للأحداث، إلا أنه كان يعرف أن الحقيقة هي أن المعركة غير متكافئة، ويعرف جديدًا من سيكون الطرف الفائز.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٤. نوع خاص من اختبار الموت

"تتحدد القيمة الفعلية للإنسان
بقدر تحرره من الذات."
ألبرت أينشتاين (١٨٥٥٠ ١٩٥٥)

عندما كنت في البداية داخل عالم "منظور دودة الأرض"، لم يكن لي وعي هناك. فأنا لم أكن أعرف من أو ماذا أكون، أو إن كنت كائن فعلاً. لقد كنت ببساطة... موجودًا، وعي لحظي وسط فراغ ضبابي، مظلم، ليس له بداية، ويبدو أنه لم تكن له نهاية.

لكنني الآن أعرف الحقيقة. الآن أدرك أنني كنت لدى الإله ولا يوجد شيء- أي شيء على الإطلاق- يستطيع أن يسلبني ذلك أبدًا. والاعتقاد الخاطئ بأننا نستطيع بطريقةٍ ما أن ننفصل عن الله هو أساس كل أشكال القلق في الكون، وعلاج ذلك- الذي تلقيته جزئيًا داخل البوابة وبالكامل داخل المركز- هو الثقة بأنه لا يوجد على الإطلاق ما يستطيع أن يفصلنا عن الله. هذه المعرفة- وهي تظل أهم شيء تعلمته على الإطلاق- نزعت مني الخوف من عالم "منظور دودة الأرض" وسمحت لي أن أراه على حقيقته كجزء غير سار من الكون، لكن لا شك أنه ضروري.

لقد سافر العديد من الناس إلى تلك العوالم التي سافرت إليها، لكن الغريب أن معظمهم كانوا يتذكرون هويتهم الأرضية بينما كانوا خارج أجسامهم الأرضية. كانوا يعرفون أنهم "جون سميث" أو "جورج جونسون" أو "سارة براون". ولم تغب أبدًا عن نظرهم حقيقة أنهم عاشوا على الأرض. كما كانوا يدركون أن أقاربهم الأحياء ما زالوا هناك، ينتظرونهم ويأملون رجوعهم. وفي العديد من الحالات، كانوا يقابلون أصدقاء وأقرباء قد ماتوا قبلهم، وفي تلك الحالات أيضًا، كانوا يتعرفون على هؤلاء في الحال.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ذكر العديد ممن اختبروا تجربة الموت أنهم مروا باستعراض لحياتهم الماضية، رأوا فيها تعاملاتهم مع الآخرين كما رأوا الأعمال الجيدة والسيئة التي قاموا بها خلال حياتهم.

لم أختبر أيًا من هذه الأمور، وبالنظر إلى كل ذلك يتضح مدى اختلاف تجربة اختبار الموت التي مررت بها عن تجارب الاخرين. لقد كنت متجردًا تمامًا من هويتي الجسدية طوال الوقت، ولذلك لم أختبر أيًا من الأحداث التقليدية الخاصة باختبار الموت التي تعتمد على معرفتي لهويتي على الأرض.

أعلم أنه قد يبدو مُحيرًا كيف أنني في وسط كل هذه الأحداث ولا أعرف من أنا أو من أين أتيت. فكيف استطعت أن أتعلم كل هذه الأمور الجميلة المعقدة؟! كيف استطعت أن أرى الفتاة التي بجانبي؟ والأشجار المزهرة والشلالات والفلاحين. ومع ذلك لا أعرف أن "إبين ألكسندر" هو من يختبر كل تلك الأمور؟ كيف أستطيع أن أفهم كل ما فهمته، ومع ذلك لا أدرك أنني كنت على الأرض طبيبًا، زوجًا، وأبًا؟! كنت أرى الأشجار والأنهار والسحب عندما دخلت إلى البوابة بذهول، رغم أني رأيت ذلك كثيرًا على أرضنا كطفل نشأ في وينستون- سيلم، بشمال كارولينا؟

وأفضل محاولة لي لإجابة هذا السؤال هي أن أقترح أنني كنت في موقف مشابه لإنسان أصيب بفقدان ذاكرة جزئي لكن مفيد. كشخص نسى بعض الأمور الأساسية بشأن شخصيته، لكنه استفاد من هذا النسيان، حتى ولو لمدة قصيرة.

كيف أكون قد استفدت من عدم تذكري لهويتي الأرضية؟ لقد سمح لي ذلك بأن أتعمق في العوالم التي تفوق عالمنا دون أن أنشغل بما تركته خلفي. فخلال الوقت الذي أمضيته في تلك العوالم، كنت روحًا ليس لديها ما تخسره. لا أماكن لأفتقدها، ولا أشخاص لأحزن على تركهم. لقد جئت من الفراغ وليس لي ماضي، ولذلك قبلت بالكامل الظروف التي مررت بها برباطة جأش، حتى الظُلمة الأوليَّة في عالم "منظور دودة الأرض".

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ولأنني نسيت تمامًا هويتي الأرضية، تواصلت بالكامل مع الكيان الكوني الحقيقي الذي هو أنا (وهذه حقيقتنا جميعًا).

مرة أخرى، كانت تجربتي تشبه الحلم في بعض الجوانب، حيث تستطيع أن تتذكر بعض الأمور عن نفسك بينما تنسى تمامًا أمورًا أخرى. لكنني أظل أؤكد أن البوابة والمركز لا يمتا للحلم بصلة بل يفوقا الواقع- وأبعد ما يكونا عن الخيال. إن قلت أن ذاكرتي نُزعت مني، سيجعل ذلك الأمر يبدو وكأن غياب ذكرياتي الأرضية هناك كان مُتعمدًا بطريقةٍ ما. وبالفعل أشك الآن في أنه كان كذلك. وربما لا أُبالغ، عندما أقول أنه سُمح لي أن أموت بعد نضال أصعب، وأسافر لأماكن أعمق، خلاف كل مختبري الموت قبلي.

وبقدر ما يبدو في ذلك من تعالي، إلا أن نواياي ليست كذلك. لقد ساعدتني الكتابات الكثيرة الموجودة عن اختبار الموت على فهم رحلتي الخاصة خلال الغيبوبة. لا يمكنني أن أدعي أنني أعرف ما مررت به في هذه التجربة، لكنني أعرف (بعدها بثلاث سنوات)، من قراءتي لما كُتب عن تجارب موت أخرى، أن الدخول إلى العوالم الأعلى هو عملية تدريجية تتطلب أن يتحرر الإنسان مما يربطه بالمستوى الأدنى.

ولم يمثل ذلك مشكلة بالنسبة لي، لأنني خلال تجربتي لم يكن لي أي ذكريات أرضية على الإطلاق، والألم والحزن الوحيد الذي شعرت به كان عندما رجعت إلى الأرض، حيث بدأت.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٥. نعمة النسيان

"ليس أمامنا اختيار سوى أن نؤمن بحرية الإرادة."
إيزاك ب. سينجر (١٩٠٢- ١٩٩١)

ينظر معظم العلماء للوعي الإنساني اليوم على أساس أنه يتكون من معلومات رقمية أو بيانات، كتلك المستخدمة في أجهزة الكمبيوتر. رغم أن بعض هذه البيانات- مثل رؤية غروب مذهل، أو سماع سيمفونية جميلة للمرة الأولى، أو حتى الوقوع في الحب- نشعر بها بشكل أعمق وأصدق من باقي البيانات التي يخلقها ويخزنها المخ. وفي الحقيقة هذا مجرد وهم، لأن كل البيانات لها نفس الخواص. تأخذ عقولنا نسخة من الحقائق الخارجية عن طريق المعلومات التي نستقبلها من خلال حواسنا وتحولها إلى معلومات رقمية. وهكذا يكون إدراكنا الحسِّي هو مجرد صورة أو نسخة- وليس الحقيقة نفسها.

بالطبع كان هذا هو رأيي أنا أيضًا. ولا زلت أذكر عندما كنت في كلية الطب وكان بين الحين والآخر هناك من يجادل قائلاً أن الوعي ليس أكثر من برنامج كمبيوتري معقد جدًا. ويقترح هذا التحليل أن العشرة بلايين أو ما يقرب من ذلك من الخلايا العصبية المُتَّقدة باستمرار في عقولنا قادرة على إنتاج وعي وذاكرة على مدار العمر.

ولنفهم كيف يمكن أن يمنعنا العقل من الوصول إلى معرفة العوالم الأعلى، ينبغي أن نقبل- على الأقل نظريًا في الوقت الحالي- أن العقل نفسه لا يُنتج الوعي. وأنه عوضًا عن ذلك، يمثل نوع من الصمام أو المصفاة، مُحولاً الوعي غير المادي الأعظم الذي نملكه في العوالم غير المادية إلى قدرة محدودة أكثر تناسب حياتنا الفانية. وتوجد من الناحية الأرضية، فائدة مُحددة جدًا لهذا. فكما أن عقولنا تعمل باجتهاد كل دقيقة من حياتنا ونحن مستيقظين لتقوم بتصفية وابل المعلومات الحسية التي تتجه إلينا من المحيط المادي الذي حولنا، فتنتقي المواد التي نحتاجها فعلاً لكي نحيا، لذلك فإن نسياننا لهوياتنا العلوية أيضًا يسمح لنا أن نعيش "هنا والآن" بشكلٍ أكثر فاعلية. وتمامًا كما أن حياتنا

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

المعتادة فيها أكثر مما يمكن استيعابه مرة واحدة فيعوق القيام بكل عمل في الوقت نفسه، فإن ادراكنا الزائد للعوالم التي تفوق عالمنا هنا والآن سوف يبطئ من تقدمنا أكثر. إذا عرفنا الكثير جدًا عن العالم الروحي الآن، ستصير ممارسة حياتنا الأرضية تحديًا أكبر مما هي عليه بالفعل. بالطبع لا يعني ذلك أننا ينبغي ألا نفهم الآن العوالم التي تفوق عالمنا. ومن وجهة نظر أكثر تركيزا على الهدف (وأنا أؤمن الآن أن الكون يصير لا شيء ما لم يكن له هدف)، فإن اتخاذ القرارات السليمة بإرادتنا الحرة في مواجهة الشر والظلم على الأرض يكون أسهل إن تذكرنا، ونحن هنا، الجمال والبهاء الكامل الذي في انتظارنا.

لماذا أنا واثق من كل هذا لهذه الدرجة؟ لسببين. الأول هو أنني رأيتها -أرتني إياها الكائنات التي قامت بتعليمي عندما كنت في البوابة والمركز، والثاني هو أنني اختبرتها فعلاً. بينما كنت فيما وراء الجسد، تلقيت معلومات بشأن طبيعة ونظام الكون يفوق فهمي بكثير. لكنني فهمتها على أية حال، في الغالب لأنني بسبب اختفاء انشغالاتي الأرضية عن الصورة، كان لدي المساحة لأفعل ذلك. الآن بما أنني رجعت إلى الأرض وأتذكر هويتي الجسدية، انحصرت مرة أخرى بذرة المعرفة فوق الأرضية. لكنها لا تزال موجودة. أشعر بها، في كل لحظة. وسيتطلب الأمر سنوات، لتُثمر في هذه البيئة الأرضية. أي سيتطلب الأمر سنوات لأفهم، باستخدام عقلي المادي الفاني، ما فهمته في الحال وبسهولة في العوالم المتحررة من العقل التي تفوق عالمنا هذا. لكنني أثق أنه بالعمل الجاد من جانبي، ستتكشف لي المزيد من تلك المعرفة.

وأقل ما يمكن أن يُقال هو أن هناك فجوة بين فهمنا العلمي الحالي للكون وبين الحقيقة كما رأيتها. ما زلت أحب الفيزياء وعلم الكونيات، ومازالت أحب دراسة كوننا الرائع الفسيح. لكنني الآن أملك مفهوم موسع للمعنى الحقيقي لكلمتي "رائع" و"فسيح". يبدو الجانب المادي من الكون كذرة من التراب بالمقارنة بالجانب الروحي غير المرئي. بمفاهيمي السابقة، لم أكن لأستخدم كلمة "روحي" أثناء حوار علمي. لكنني الآن أؤمن أنها كلمة لا يمكن إهمالها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

يبدو أنني وجدت في المركز تفسيرًا واضحًا لما ندعوه "الطاقة المظلمة" و"المادة المعتمة"[٥]، وكذلك لمكونات أكثر سموًا في تركيب كوننا لن يستطيع البشر أن يفهموها لدهور.

لكن لا يعني ذلك أنني أستطيع أن أفسرها لك. ذلك لأنني، رغم ما يبدو في الأمر من تناقض، ما زلت أحاول أنا نفسي أن أفهمها. ربما تكون أفضل طريقة للتعبير عن هذا الجزء من التجربة هو أن أقول أنني قد أخذت عينة من نوع أسمى من المعرفة: نوع أعتقد أن البشر سيستطيعون الوصول إليه بأعداد أكبر في المستقبل. لكن كشف تلك المعرفة الآن يشبه كوني شمبانزي، تحول إلى إنسان ليومٍ واحد ليختبر كل عجائب المعرفة الإنسانية، ثم رجع مرة أخرى إلى أصدقائه من فصيلة الشمبانزي وحاول أن يخبرهم كيف كانت تجربته من معرفة لغات عديدة مختلفة للرومانسية، الحساب، والمقياس الضخم للكون.

هناك بالأعلى عندما يظهر سؤال في عقلي، تظهر الإجابة في نفس اللحظة، كزهور تنمو معا. كان الأمر كما لو أنه لا يوجد ذرة مادية في هذا الكون منفصلة فعليًا عن الأخرى، و بنفس الطريقة لم يكن هناك سؤال دون أن تصاحبه إجابة. هذه الإجابات لم تكن ببساطة "نعم" أو "لا". بل كانت شروحات للمفاهيم المتسعة، وتكوينات مذهلة من أفكار حية، معقدة للغاية. أفكار متسعة جدّا تتطلب أعمارًا لكي أفهمها إذا ما كنت محصورًا في التفكير الأرضي. لكنني لم أكن كذلك. لقد انسلخت من أسلوب التفكير الأرضي هذا كما تخرج الفراشة من الشرنقة.

رأيت الأرض كنقطة زرقاء باهتة في السواد المهول للفضاء المادي. واستطعت أن أرى أن الأرض هي مكان يختلط فيه الخير والشر، وأن هذا يمثل أحد سماتها الفريدة. لكن حتى على الأرض الخير أكثر بكثير من الشر، لكن مسموح للشر على الأرض أن يكون له تأثير بطريقة يستحيل أن تجعله في المستويات الأعلى من الوجود. وقد سمح

[٥] الطاقة المظلمة والمادة المعتمة هي تعبيرات ترتبط بالنظريات العلمية المطروحة حاليًا حول نشأة الكون.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الخالق أن تكون الغلبة للشر في بعض الأحيان وذلك كنتيجة حتمية لمنحه إيانا عطية حرية الإرادة.

تتناثر أجزاء صغيرة من الشر في الكون، لكن مُجمل كل هذا الشر هو كحبة رمل في شاطئ فسيح بالمقارنة بالخير الوفير، والرجاء، والمحبة غير المشروطة التي تغمر الكون. فالمادة التي يتكون منها الكون البعيد نفسه هي المحبة والقبول، وأي شيء لا يتسم بهاتين الصفتين يظهر في الحال وبوضوح أنه لا ينتمي لهذا المكان.

لكن ثمن حرية الإرادة هنا هو فقدان أو الابتعاد عن هذه المحبة والقبول. فنحن أحرار؛ لكننا محاطين ببيئة تجعلنا نشعر أننا لسنا أحرارًا. ولحرية الإرادة أهمية كبيرة في عالمنا الأرضي، أهمية سنكتشف جميعًا يومًا ما أنها تقوم بدور أهم بكثير وهو أن تسمح بصعودنا إلى البُعد البعيد الخالي من الزمن. وقد تبدو حياتنا هنا غير هامة، لأنها صغيرة جدًا بالمقارنة بالحياة الأخرى والعوالم الأخرى التي تملأ الأكوان المنظورة وغير المنظورة. لكنها هامة إلى حد كبير، لأن دورنا هنا هو أن ننمو في اتجاه الإله، وهذا النمو تراقبه باهتمام الكائنات في العوالم الأعلى- الأرواح والأفلاك الساطعة، تلك الكائنات التي رأيتها هناك في البوابة، والتي أعتقد أنها أصل ما نطلق عليه في ثقافتنا الملائكة.

نحن، ككائنات روحية ساكنة مؤقتا في عقول وأجسام فانية تتناسب مع الحياة على الأرض، أقول نحن من نقوم بالخيارات الفعلية. إن التفكير الحقيقي ليس من عمل العقل. لكننا تدربنا- جزئيًا عن طريق العقل نفسه- أن نربط عقولنا بهويتنا وبما نفكر فيه لدرجة أننا فقدنا القدرة على إدراك أننا طوال الوقت أكبر بكثير من مجرد عقول وأجسام مادية تقوم بإصدار الأوامر.

التفكير الحقيقي يسبق التفكير الجسداني. هذا هو التفكير الذي وراء التفكير، المسئول عن كل الاختيارات الهامة التي نقوم بها في العالم. تفكير لا يعتمد على تخطيط، بل يتحرك بسرعة كالبرق، مُحدثًا ربط على مستويات مختلفة، ثم يجمعهم معًا. وفي مقابل هذا الذكاء الداخلي الحر، نجد تفكيرنا العادي الجسداني بطيء ومرتبك إلى حد كبير. إن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

هذا التفكير الحقيقي هو الذي يخَرج باستنتاجات علمية ملهمة أو يكتب أغنية ملهمة. هو التفكير فيما وراء الوعي الموجود دائمًا، لكننا فقدنا القدرة على الوصول إليه أو الإيمان به. ولا حاجة للقول، أن هذا هو التفكير الذي تحرك في مساء ذلك اليوم الذي قفزت فيه من الطائرة وفتح "تشك" مظلته تحتي فجأة.

واختبار التفكير خارج العقل يعني الدخول إلى عالم من الروابط الفورية التي تجعل التفكير العادي (وهو محدود بالعقل المادي وسرعة الضوء) يبدو كحدث خامل بطيء. فذاتنا الحقيقية العميقة حرة تمامًا. لا تعوقها أو تساومها تصرفات ماضية كما لا تهتم بالماهية أو المنزلة. وهي تدرك أنه لا يوجد ما يدعو للخوف من العالم الأرضي، ولذلك، لا حاجة لإعلاء نفسها عن طريق الشهرة أو الثروة أو الانتصارات.

هذه هي الذات الروحية الحقيقية التي مُقدَّر لنا جميعًا أن نستعيدها يومًا ما. لكن حتى مجيء ذلك اليوم، أشعر أننا ينبغي أن نفعل كل ما في طاقتنا لنتواصل مع هذا الجانب الإعجازي من أنفسنا- لننميه ونخرج به إلى النور. هذا هو الكيان الذي يحيا بداخلنا جميعًا الآن وهذا هو في الحقيقة الكيان الذي أرادنا الله حقًا أن نكونه.

كيف نقترب من هذه الذات الروحية الأصلية؟.. من خلال المحبة والشفقة. لماذا؟ لأن المحبة والشفقة هما أكثر من مجرد أمور تجريدية كما يعتقد الكثير منا. بل هي حقائق مادية يتشكل منها العالم الروحي.

ولكي نعود إلى ذلك العالم، ينبغي أن نعود مرة أخرى مُشابهين لذلك العالم، حتى بينما نحن مازلنا عالقين في هذا العالم الذي نحن به.

وأحد أكبر الأخطاء التي يقوم بها البشر عندما يفكرون في الله هو أنهم يتخيلوا أن الله "مجرد". نعم الله يفوق الأرقام، وكمال الكون الذي يقيسه العلم ويجاهد لفهمه. لكن مرة أخرى، وبشكل متناقض- الله "إنسان"[٦] كذلك- بل وأكثر إنسانية مني ومنك. الله يفهم ويتعاطف مع مواقفنا الإنسانية بشكل أعمق مما نستطيع أن نتصور لأن الله يعرف ما قد نسيناه، ويفهم العبء الرهيب الذي نحمله، وهو أن نحيا ناسين الإله ولو للحظة.

[٦] يقصد هنا أن يقول أن الله "شخص"، وليس مجرد فكرة أو قوة فائقة مجردة.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٦. البئر

تعرَّفت "هولي" على صديقتنا "سيلفيا" في الثمانينات، عندما كانتا تعملان بالتدريس في مدرسة رافينسكروفت بشمال كارولينا. وبينما كانت هولي هناك، كانت "سوزان رينتجيز" أيضًا صديقة مُقربة لها.

سوزان شخصية تعتمد على الحدس- الأمر الذي لم يؤثر على رأي فيها. فقد كانت في رأيي، شخصية مميزة، بغض النظر عن أن ما تفعله لا يتفق مع مفاهيمي العلمية البحتة عن الأعصاب. كانت أيضًا تعمل كوسيطة روحية ولقد كتبت كتاب يُدعى "عين ثالثة مفتوحة"، وكانت "هولي" من أشد المعجبين به. وكان أحد أشكال العلاج الروحي الذي كانت "سوزان" تمارسه بانتظام، عن طريق التواصل مع المرضى الذين في غيبوبة من خلال الوساطة الروحية. وفي يوم الخميس، أي اليوم الرابع لي في الغيبوبة، فكرت "سيلفيا" أنه ينبغي أن تحاول "سوزان" التواصل معي.

فاتصلت بها "سيلفيا" في بيتها في "شابل هيل" وأخبرتها بحالتي. وسألتها إن كان في استطاعتها أن تتواصل معي؟ فأجابتها "سوزان" بالإيجاب وطلبت بعض التفاصيل بشأن مرضي. فأخبرتها "سيلفيا" بالأمور الأساسية: أنني دخلت في الغيبوبة منذ أربعة أيام وأنني في حالة حرجة.

فقالت سوزان: "هذا هو كل ما أحتاج لمعرفته، سأحاول أن أتواصل معه الليلة."

من وجهة نظر "سوزان"، يكون مريض الغيبوبة في حالة وسطية. فهو ليس حاضر كلية (في العالم الأرضي) كما أنه ليس حاضر كلية (في العالم الروحي)، وهؤلاء المرضي عادةً ما يكون لهم بيئة غامضة خاصة بهم. كانت هذه، كما ذكرت من قبل، ظاهرة لاحظتها بنفسي عدة مرات، لكنني بالطبع لم أفسرها كأمر فائق للطبيعة كما فعلت "سوزان".

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ومن خبرة "سوزان"، كانت أحد السمات المميزة لمرضى الغيبوبة هي أنهم يستجيبون للتواصل عن طريق التخاطر. فكانت واثقة أنها بمجرد أن تضع نفسها في حالة تأملية، ستستطيع أن تتواصل معي بسرعة.

وقالت لي فيما بعد: "التواصل مع مريض في غيبوبة يشبه إلقاء حبل في بئر عميق. ويعتمد العُمق الذي ينبغي أن ينزل إليه الحبل على مدى عُمق حالة الغيبوبة. وعندما حاولت التواصل معك، كان أول ما فاجئني هو العمق الكبير الذي نزل إليه الحبل، وكلما نزل أعمق، كلما ازداد خوفي من أن تكون بعيدًا - لدرجة لا تسمح لي بالتواصل معك مما يعني أنك لن تعود."

وبعد خمس دقائق كاملة من النزول العقلي عن طريق الحبل التخاطري، شعرت "سوزان" بتغير بسيط، كما يحدث عندما يُجذب حبل صنارة صيد السمك برفق لكن بوضوح وهو في عمق المياه.

وقالت لي لاحقًا: "كنت واثقة أن ما التقطه حبل التخاطر هو أنت، وأخبرت "هولي" بذلك. أخبرتها بأنه ليس موعد رحيلك بعد، وإن جسمك سيعرف ماذا ينبغي أن يفعل. كما أخبرت "هولي" أنها يجب أن تحفظ تلك الأمور في عقلها، وترددها لك بينما تجلس بجانب سريرك."

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٧. حالتي حالة نادرة

كان يوم الخميس عندما قرر الأطباء أن سلالة الإيكولاي الموجودة بجسمي تختلف عن السلالة فائقة المقاومة التي ظهرت بدون سبب معروف في إسرائيل وقتما كنت هناك. لكن ذلك جعل حالتي أكثر ارباكًا. بالتأكيد، كان من المطمئن أنني لم أكن أحمل سلالة من البكتريا يمكنها أن تُبيد ثلث الدولة، لكن فيما يتعلق بشفائي أنا الشخصي، أكد ذلك ما كان أطبائي يشكون به بالفعل، وهو أن حالتي كانت الأولى من نوعها.

وتحوَّلت الحالة بسرعة من ميئوس منها إلى مستحيل شفائها. إذ لم يملك الأطباء إجابة على كيفية إصابتي بالمرض، أو كيف يمكنهم إخراجي من الغيبوبة. وكانت الحقيقة الوحيدة المُعترف بها، هى أنهم لا يعرفون أحدًا نال الشفاء الكامل من التهاب سحائي بكتيري بعد أن دخل في غيبوبة لعدة أيام. وكان هذا هو اليوم الرابع لي في الغيبوبة.

نال التوتر من الجميع. وقد اتفقت كل من "فيليس" و"بيتسي" يوم الثلاثاء على منع التحدث عن احتمالية موتي في وجودي، على افتراض أن جزء مني قد يكون مُدركًا للحوار. حتى أنه في صباح الخميس، عندما سألت "جين" أحد ممرضات حجرة العناية المركزة عن فرص نجاتي، وسمعتها "بيتسي" على الجانب الآخر من سريري، قالت :"أرجوكم أكملوا هذا الحوار خارج الغرفة."

كنا دائمًا أنا و"جين" مُقربين للغاية. لقد كنا جزء من العائلة مثل باقي إخوتنا، لكن حقيقة أن أبانا وأمنا قاما باختيارنا، كما عبَّرا هما عن الموضوع، قد منحنا رابطة خاصة. لقد كانت دائمًا ترعاني، وأوشك إحباطها نتيجة شعورها بالعجز أمام حالتي أن يدفع بها إلى الانهيار. فامتلأت عيني "جين" بالدموع. وقالت: "أنا في حاجة إلى أن أذهب إلى البيت لبعض الوقت."

عادت "جين" إلى منزلنا، حزمت أمتعتها، ورجعت بسيارتها إلى "ديلوير" في ذلك المساء. وبرحيلها، أظهرت أول تعبير خارجي عن شعور بدأ يصيب كل العائلة وهو العجز.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

من أكثر التجارب إحباطًا، رؤية شخص تحبه في حالة غيبوبة. فأنت تريد أن تساعده، لكنك لا تستطيع. تريد أن يفتح الشخص عينيه، لكنه لا يفعل. وعادةً ما تلجأ عائلات مرضى الغيبوبة إلى فتح أعينهم بأنفسهم. كأنهم يحاولون اجبار المريض أو أمره أن يفيق. وبالطبع لا ينجح ذلك، بل ومن الممكن أن يزيد من الضرر النفسي لهم، فإذا فتحت جفني مريض في غيبوبة عميقة، ستجد في الغالب عين في اتجاه والأخرى في الاتجاه الآخر. وهو مشهد مثير للأعصاب، وقد أضاف المزيد من الألم إلى "هولي"، عندما فتحت جفني عدة مرات هذا الأسبوع، ورأت عينين تائهتين لجثة.

برحيل "جين" بدأت الأمور تتدهور. بدأت "فيليس" تُظهر سلوكًا كنت قد رأيته مرات لا تحصى بين عائلات المرضى في سنوات عملي. حيث بدأت تُصاب بالإحباط من أطبائي. فسألت "بيتسي" وهي ثائرة: "لماذا لا يعطوننا المزيد من المعلومات؟ أقسم أنه لو كان "إبين" هنا، كان سيخبرنا بما يحدث فعلاً."

في الحقيقة كان أطبائي يفعلون كل ما يستطيعون من أجلي. وبالطبع كانت "فيليس" تعرف ذلك. لكن الألم والإحباط الناجمين عن الموقف كانا يرهقان أحبائي.

يوم الثلاثاء، كانت "هولي" قد اتصلت بدكتور "جيه لوفلر"، شريكي السابق في تطوير برنامج الجراحة الإشعاعية في مستشفى بريجهام ببوسطن. كان "جيه" في ذلك الوقت رئيس قسم علم الأورام الإشعاعي في مستشفى ماساتشوستس العام، ورأت "هولي" أنه في مركز مناسب ليقدم لها بعض الإجابات.

بينما كانت "هولي" تشرح له موقفي، اعتقد "جيه" أنه لا شك أنها فهمت تفاصيل الحالة فهمًا خاطئًا. فقد كان يعرف أن ما تصفه له كان مستحيلاً. لكن بمجرد أن استطاعت "هولي" أن تقنعه أنني فعلاً في غيبوبة ناتجة عن حالة نادرة من الالتهاب السحائي البكتيري نتيجة الإيكولاي والتي لا يستطيع أحدًا أن يعرف مصدرها، بدأ يتصل بخبراء في الأمراض المعدية في كل أنحاء الدولة. ولم يسمع أحدًا ممن تحدث إليهم عن حالة شبيهة بحالتي. وبرجوعه إلى السجلات الطبية حتى عام ١٩٩١، لم يجد حالة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

واحدة من الالتهاب السحائي الناتج عن الإيكولاي بين البالغين ممن لم يخضعوا مؤخرًا لجراحات بالمخ.

ومنذ يوم الثلاثاء، صار "جيه" يتصل على الأقل مرة يوميًا ليعرف آخر الأخبار من "فيليس" أو "هولي" ويقدم لهم آخر ما كشفته له أبحاثه في الموضوع. "ستيف تاتر" صديق وجراح أعصاب آخر، قام هو أيضًا بالاتصال يوميًا مُقدمًا نصائح وتشجيع. لكن يومًا بعد يوم، اتضح أكثر أن حالتي كانت الأولى من نوعها في التاريخ الطبي. الالتهاب السحائي البكتيري التلقائي نادر جدًا بين البالغين. يُصاب به أقل من واحد من كل عشرة ملايين شخص سنويًا. ومثل كل أنواع الالتهاب السحائي البكتيري سلبي الجرام، يكون المرض عدواني للغاية، لدرجة أن أكثر من ٩٠ ٪ من المصابين به يُظهرون منذ البداية تدهور عصبي سريع مثلي، ثم يموتون. كان هذا هو معدل احتمالية موتي عندما دخلت غرفة الطوارئ. وتحولت نسبة الـ٩٠٪ إلى ١٠٠ ٪ عندما انقضى الأسبوع وفشل جسمي في الاستجابة للمضادات الحيوية. والقليلون الذين ينجون من حالة حادة كحالتي يتطلب الأمر العناية بهم على مدار الساعة لباقي حياتهم. لكن كانت حالتي رسميًا هي الأولى من نوعها طبيًا. ولا توجد حالة أخرى يستطيع الأطباء أن يقارنوا حالتي بها.

ابتداءً من يوم الأربعاء، أحضرت "هولي" "بوند" ليزورني كل مساء بعد المدرسة. لكنها بدأت تتساءل، منذ يوم الجمعة، إن كانت هذه الزيارات تضر أكثر ما تفيد. فسابقًا، في ذلك الأسبوع، كُنت أتحرك بين الحين والآخر. كان جسمي ينتفض فجأة بعنف. فكانت ممرضة تقوم بتدليك رأسي وتعطيني المزيد من المهدئات، وفي النهاية كنت أعود هادئًا مرة أخرى. كان هذا مُحيرًا ومؤلمًا بالنسبة لابني ذو العشر سنوات. كان يكفي أنه ينظر إلى جسمي الذي لم يعد يشبه والده الذي يعرفه، فمن الصعب للغاية أن يرى أيضًا جسمي يقوم بحركات ميكانيكية لا تشبه حركاتي. فيومًا بعد يوم، أصير أبعد ما يكون عن الأب الذي كان يعرفه، ويصير جسمي الذي على السرير غريب عنه وكأنه توأم قاسي للأب الذي كان يعرفه سابقًا.

coptic-books.blogspot.com

بنهاية الأسبوع توقفت تمامًا تلك الحركات الفجائية التي كانت تحدث بين الحين والآخر. فلم أكن في حاجة إلى المزيد من المهدئات، لأن حتى الحركة الآلية التي تنتج عن أكثر ردود الأفعال بدائية للعقلي والحبل الشوكي، قد تضاءلت إلى لا شيء.

اتصل المزيد من أفراد العائلة والأصدقاء ليسألوا إن كان ينبغي أن يحضروا لرؤيتي. وبحلول يوم الخميس، كان القرار هو أنهم لا ينبغي أن يأتوا. كان هناك بالفعل الكثير من الناس في غرفة العناية المركزة الخاصة بي. وكانت الممرضات تؤكدن أن عقلي يحتاج إلى الراحة ومن الأفضل أن تكون غرفتي هادئة. وكان هناك تغيُّر ملحوظ في نبرة تلك المكالمات التليفونية. حيث كانت تتحول من المتفائلة إلى اليائسة. وفي بعض الأحيان كانت "هولي" تنظر حولها وتشعر أنها فقدتني بالفعل.

في مساء يوم الخميس، دخلت سكرتيرة "مايكل سوليفان"، بكنيسة القديس يوحنا الرسولية، إلى مكتبه وقالت له "المستشفى على التليفون. أحد الممرضات اللاتي تعتنين بـ"إبين" تريد أن تتحدث معك. وقالت أن الأمر عاجل."

فأجاب "مايكل" على المكالمة. وقالت له الممرضة: "ينبغي أن تأتي في الحال. إن "إبين" يموت."

لأنه كاهن، تعرض "مايكل" لهذا الموقف كثيرًا من قبل. فالكهنة يرون الموت وما يتركه من حطام بقدر ما يراه الأطباء تقريبًا. لكن "مايكل" صُدم عندما سمع كلمة "الموت" مرتبطة بي. فاتصل بزوجته "بيج" وطلب منها أن تصلي من أجلي، ومن أجله ليكون قويًا في هذا الموقف. ثم أخذ سيارته وتحرك عبر الأمطار الباردة إلى المستشفى، مُحاولاً بصعوبة أن يرى طريقه عبر الدموع التي ملأت عينيه.

عندما دخل غرفتي كان المشهد كما رآه في آخر زيارة له. "فيليس" جالسة بجانب سريري، حيث كان دورها في السهر بجانبي وإمساك يدي، الأمر الذي ظل مستمرًا بلا انقطاع منذ وصولها المستشفى في ليلة يوم الاثنين. كان صدري يصعد ويهبط اثني عشر

christianlib.com

مرة في الدقيقة بمساعدة جهاز التنفس الصناعي، وكانت ممرضة العناية المركزة تقوم بعملها المعتاد، حيث تجول بين الأجهزة التي تحيط بسريري وتلاحظ القراءات.

ثم دخلت ممرضة أخرى، وسألها "مايكل" إن كانت هي التي اتصلت بالسكرتيرة الخاصة به.

فقالت: "لا، لقد كنت هنا طوال الصباح، ولم تتغير حالته كثيرًا منذ الليلة الماضية. لا أعرف من اتصل بك."

بحلول الساعة الحادية عشر كانت "هولي" وأمي، و"فيليس" و"بيتسي" في غرفتي. واقترح "مايكل" أن يصلوا معًا. فأمسك الجميع بأيدي بعضهم البعض حول سريري، بما في ذلك الممرضتين،، وقام "مايكل" بطلبة أخرى قلبية من أجل شفائي.

"يا رب، أعد لنا "إبين". أنا أعلم أن هذا في سلطانك."

لا أحد يعرف من الذي اتصل بـ "مايكل". لكن أيًّا كان المتصل، فقد كان ما عمله عملاً حسنًا. لأن الصلوات القادمة من العالم الأرضي- العالم الذي بدأت منه- كانت قد بدأت تصلني أخيرًا.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٨. النسيان والتذكر

الآن صار إدراكي للعالم العلوي أكبر. بل صار كبيرًا جدًا لدرجة تجعله يبدو وكأنه يستوعب الكون كله. هل استمعت سابقًا إلى أغنية في محطة إذاعية مليئة بالتشويش. فتشعر إنك اعتدتها هكذا بحالتها. وعندما يقوم أحدًا بتعديل التردد تسمع نفس الأغنية واضحة للغاية. فتتساءل كيف لم أُلاحظ كم كانت مشوشة بهذا القدر؟

هذه هي الطريقة التي يعمل بها العقل. إذ خُلِقَ البشر بُقدرة على التكيُّف. وقد أوضحت لمرضاي مرات عديدة أن الشعور بعدم الارتياح الناتج عن المرض سيتضاءل، أو على الأقل سيبدو أنه يتضاءل، عندما تتكيَّف أجسامهم وعقولهم مع الظروف الجديدة. فإذا استمر أمرًا ما لمدة طويلة، سيتعلم عقلك أن يُهمله أو يتحايل عليه، أو يتعامل معه كأنه أمر طبيعي.

لكن إدراكنا الأرضي المحدود يفوق الطبيعية، وقد بدأت ألاحظ ذلك لأول مرة عندما تعمقت في قلب المركز. كنت لا أتذكر شيئًا من ماضيَّ الأرضي، ولم يقلل ذلك مني. فبالرغم من أنني كنت قد نسيت حياتي هنا على الأرض، إلا أنني كنت أتذكر من كنت فعلاً هناك. كنت مواطن في كون مُذهل في اتساعه وتعقيده، وتحكمه المحبة.

وبطريقة عجيبة يُشبه ما اكتشفته فيما وراء الجسد، ما تعلمته منذ عام من خلال إعادة التواصل مع عائلتي بالميلاد: وهو أنه لا يوجد بيننا يتيم. إذ لنا جميًعا عائلة أخرى، من كائنات ترعانا وتحرسنا، كائنات نسيناها للحظة، لكن إن أدركنا وجودها، فهي في انتظار أن تساعدنا في اجتياز زماننا هنا على الأرض. لا يوجد أحد غير محبوب. فالخالق الذي يحبنا بما يفوق قدرتنا على الفهم يعرف ويهتم بكل واحد منا. وينبغي أن يكون ذلك معلومًا للجميع.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

١٩. لا مكان للاختباء

بحلول يوم الجمعة، كان جسمي مُوصلاً بثلاث مضادات حيوية وريدية لأربعة أيام كاملة بلا استجابة. جاء الأهل والأصدقاء من كل مكان، ومن لم يأتوا أنشأوا مجموعات صلاة في كنائسهم. في مساء ذلك اليوم وصلت "بيجي" أخت "هولي" و"سيلفيا" صديقة "هولي" المقربة. رحبت بهما "هولي" بقدر ما استطاعت من البشاشة على وجهها. كانت "بيتسي" و"فيليس" تحاولان أن تظلا متفائلتين رغم كل الظروف. لكن الأمر كان يزداد كل يوم صعوبة في تصديقه. حتى بيتسي نفسها بدأت تتساءل إن كان قرارها بمنع الحوارات المتشائمة داخل الغرفة، يعني شيئًا أكثر من أنه مجرد قرار بعدم ذكر الحقيقة في الغرفة.

في ذلك الصباح، بعد ليلة أخرى طويلة من السهر، سألت "فيليس" "بيتسي" "هل تعتقدين أن "إبين" كان سيفعل المثل لأجلنا، لو كانت الأدوار معكوسة؟ أعني هل تعتقدين أنه كان سيمضي كل دقيقة معنا، مُعسكرًا في وحدة العناية المركزة؟"

فقدمت "بيتسي" أجمل وأبسط إجابة في صيغة سؤال: "هل هناك مكانٍ آخر في العالم تتخيلي أن نكون الآن به؟"

وقد أخبرتني "فيليس" لاحقًا أنهما اتفقتا في الرأي على أنه لو كان هذا حدث، لكنت سأكون بجانبهم في حالة ما إذا احتاجوني، إلا أنه كان من الصعب للغاية أن يتخيلونني جالسًا في مكانٍ واحد لساعات بلا انقطاع. وقالت "لكننا لم نشعر أبدًا أنه واجب علينا أو شيء ينبغي عمله- بل كان هذا هو مكاننا الطبيعي، بجانبك."

أكثر شيء كان يزعج "سيلفيا" هو يدي وقدمي، إذ قد بدأوا في الانكماش، مثل أوراق نبات يحتاج إلى المياه. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لضحايا السكتة والغيبوبة، حيث تبدأ العضلات المتحكمة في الأطراف في الانقباض. لكنه منظر ليس من السهل أبدًا على

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

العائلة والأحباء أن يروه. وبينما كانت "سيلفيا" تنظر إليَّ، كانت تحاول أن تتمسك بشعورها الأول. لكن حتى بالنسبة لها، كان الأمر يزداد صعوبة.

وكان لوم "هولي لنفسها يزداد أكثر فأكثر (لو كنت صعدت إليه قبل ذلك، لو كنت فعلت هذا ... لو كنت فعلت ذاك...) وكان الجميع يحاولون أن يشغلونها عن هذه الأفكار.

صار الجميع الآن يعلمون أنه حتى لو شُفيتُ، وإن كان الشفاء كلمة لا تعبر عما ستكون عليه حالتي. سوف أحتاج على الأقل إلى ثلاثة شهور من إعادة التأهيل المكثفة، وسيكون لدي مشاكل دائمة في الكلام -إن كان لعقلي ما يكفي من القدرة لأتمكن من التكلم من الأساس)، كما سيتطلب الأمر عناية تمريضية دائمة لباقي حياتي. كانت هذه أفضل نتيجة من الممكن أن أخرج بها من حالتي، وبقدر ما يبدو ذلك متشائمًا ومقيتًا، فحتى ذلك كان في كل الأحوال درب من دروب الخيال. فاحتمالية أن أكون في مثل تلك الحالة بدأت تتضاءل إلى أن أصبحت شبه معدومة.

لم يُسمح لـ "بوند" أن يسمع التفاصيل الكاملة لحالتي. لكنه في يوم الجمعة عندما جاء إلى المستشفى بعد مدرسته، سمع بطريق الصدفة أحد أطبائي يخبر "هولي" بما كانت تعرفه بالفعل. حان الوقت لمواجهة الحقائق. لم يَعُد هناك مساحة كبير للأمل.

وفي تلك الليلة، عندما جاء موعد انصرافه إلى المنزل، رفض "بوند" أن يترك غرفتي. كان المعتاد هو أن يُسمح لشخصين فقط بالبقاء في غرفتي ليتمكن أطبائي والممرضات من أن يقوموا بعملهم. في حوالي الساعة السادسة، اقترحت "هولي" بهدوء أن الوقت حان ليذهب للمنزل. لكن "بوند" لم يقبل أن يقوم من على كرسيه، تحت اللوحة التي رسمها للمعركة بين جنود كرات الدم البيضاء وبين قوات الإيكولاي المُعتدية.

قال "بوند" بنبرة نصفها مرارة ونصفها استعطاف: "هو لا يعلم أنني هنا على أية حال، لماذا لا تتركوني أمكث معه؟"

وبذلك تناوب الجميع واحدًا واحدًا طوال فترة وجوده لكي يظل "بوند" في مكانه.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لكن في الصباح التالي- السبت- عكس "بوند" موقفه. وللمرة الأول هذا الأسبوع، عندما دخلت "هولي" إلى غرفته لتوقظه، أخبرها أنه لا يريد الذهاب إلى المستشفى.

فسألته "هولي": لماذا؟

قال "بوند": لأني خائف

وكان اعتراف يعبر عما في قلب الجميع.

نزلت "هولي" إلى المطبخ مرة أخرى لدقائق قليلة. ثم حاولت مرة أخرى، وسألته إن كان واثقًا أنه لا يريد أن يذهب ليرى والده.

كان هناك صمت طويل بينما يحدق بها.

وأخيرًا قال: حسنًا

مر يوم السبت بنفس الروتين من المكوث بجانب سريري والمحادثات الممتلئة أملاً بين أفراد العائلة والأطباء. وبدت كلها كمحاولات يعوزها الحماس لإبقاء الأمل حيًا. فلقد كان مخزون الجميع من الأمل فارغًا أكثر مما كان في اليوم السابق.

وفي ليلة السبت، أوصلت "فيليس" والدتنا "بيتي" إلى غرفتها بالفندق، ثم قررت المرور على بيتنا. كان الظلام حالكًا، لعدم وجود أي إضاءة آتية من أي نافذة، وكان من الصعب عليها أن ترى طريقها بينما تخوض الوحل الكثيف. في ذلك الوقت كان لها خمسة أيام متتالية تمطر، منذ المساء الذي دخلت فيه وحدة العناية المركزة. وكان المطر بلا انقطاع بهذا الشكل غير المعتاد في أراضي "فيرجينيا" المرتفعة، حيث عادةً ما يكون الطقس في نوفمبر رطبًا، صافيًا ومشمسًا، مثل الأحد السابق، آخر يوم لي قبل النوبة التي أصابتني. يبدو الآن وكأن ذلك اليوم كان منذ زمنًا بعيدًا، كما يبدو وكأن السماء كانت دائمًا تمطر بهذه الغزارة. متى ستتوقف؟

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فتحت "فيليس" الباب وأضاءت الأنوار. منذ بداية الأسبوع، كان الناس لا يزالوا يأتون ويجلبون طعامًا، إلا أن جو القلق والترقب والاجتماع من أجل ظرف طارئ مؤقت قد بدأ يتحول إلى شعور باليأس والإحباط. فلقد أدرك أصدقاءنا مثل عائلتنا أن وقت الأمل قد أوشك على الانتهاء.

للحظة، فكرت "فيليس" أن توقد المدفأة، لكن بينما لم تنهي هذه الفكرة جاءتها فكرة أخرى، وما الأهمية؟ وشعرت فجأة بإرهاق واحباط لم تشعر بهما من قبل. فتمددت على الأريكة في حجرة المكتب المبطنة بالخشب واستغرقت في النوم.

بعد ذلك بنصف ساعة، عادت "سيلفيا" و"بيجي"، وتحركتا بهدوء عندما رأتا "فيليس" نائمة. نزلت "سيلفيا" إلى القبو ووجدت أن هناك من نسي باب الثلاجة مفتوحًا. فكانت المياه قد شكلت بركة على الأرض، والطعام بدأ يذوب، بما في ذلك العديد من شرائح اللحم.

وعندما أخبرت "سيلفيا" "بيجي" بحال القبو، قررتا أن تستفيدا من الموقف. فاتصلتا بباقي العائلة وبعض الأصدقاء وبدأوا العمل. خرجت "بيجي" وأحضرت بعض الأصناف الجانبية من الطعام وأعدوا وليمة مُرتجلة. وبسرعة انضمت إليهم "بيتسي" وابنتها "كيت" وزوجها "روبي" ومعهم "بوند". كان هناك الكثير من الثرثرة المتوترة، وكانوا يتجنبون الموضوع الذي يشغل عقل الجميع، وهو أنني- ضيف الشرف الغائب- في الغالب لن أعود مرة أخرى إلى هذا المنزل.

عادت "هولي" إلى المستشفى لتتابع المكوث بجانبي. فجلست بجانب سريري، أمسكت بيدي، وظلت تكرر الجمل التي اقترحتها عليها "سوزان رينتجيس"، مع الاصرار على أن تؤمن وتثق في صدق الكلمات بينما تقولها.

"اقبل الصلوات.

لقد شَفيت آخرين. والآن حان وقتك لتشفى.

أنت محبوب من الكثيرين.

جسمك يعرف ماذا ينبغي أن يفعل. لم يحن وقت موتك بعد."

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٠. الإغلاق

في كل مرة كنت أجد نفسي عالقًا في عالم "منظور دودة الأرض" القاسي، كنت أستطيع أن أتذكر اللحن المغزلي الرائع، الذي كان يفتح لي مرة أخرى المدخل إلى البوابة والمركز. لقد أمضيت وقتًا طويلاً- وإن كان يبدو وكأنه لم يمر على الإطلاق- مع ملاكي الحارس على جناح الفراشة كما أمضيت أبدية أتعلم دروسًا من الخالق والجرم السماوي النوراني في عمق المركز.

في مرحلةٍ ما، صعدت إلى حافة البوابة ووجدت أنني لم أعد أستطيع الدخول. فاللحن المغزلي- الذي كان هو تذكرة دخولي إلى المناطق الأعلى- لم يعد يأخذني إلى هناك. لقد أُغلقت أبواب السماء.

مرة أخرى، من الصعب للغاية وصف ما شعرت به، وذلك لقصور اللغة التي علينا أن نُعبِّر بها هنا على الأرض، والاتجاه العام لتبسيط الخبرات عندما نكون في الجسد. فكر في كل المرات التي تعرضت فيها للإحباط. بطريقةٍ ما، كل ما نخسره هنا على الأرض هو في الحقيقة صور مختلفة لخسارة جوهرية وهي خسارة السماء. في اليوم الذي أُغلقت فيه أبواب السماء أمامي، شعرت بحزن لم أعرفه من قبل. وإن كانت المشاعر مختلفة هناك بالأعلى. فكل المشاعر الإنسانية موجودة، لكنها أعمق، وأشمل- فهي ليست داخلية فقط بل خارجية كذلك. تخيل أنه في كل مرة يتغير مزاجك هنا على الأرض، يتغير الطقس معه في نفس اللحظة. وأن دموعك تجلب أمطار غزيرة جارفة وأن سعادتك تجعل السحب تختفي في الحال مثلاً. يقدم لك هذا تصورًا لمدى اتساع تأثير وأهمية تغيُّر المزاج هناك بالأعلى، وكيف أنه بشكل غريب لا يوجد فارق بين الداخل والخارج.

ولأنني قد صرت، مكسور الفؤاد، غرقت فعليًا في عالم من الحزن.

فتحركت إلى أسفل عبر جدران هائلة من السحب. وكان هناك همهمة حولي في كل مكان، لكنني لم أستطع أن أفهم الكلمات. ثم أدركت أن هناك عدد لا يُحصى من الكائنات

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تحيط بي، راكعة على هيئة أقواس في الفضاء. وبالرجوع إلى الأمر الآن، أُدرك ماذا كانت تفعل تلك الكائنات الملائكية نصف المرئية ونصف المحسوسة المنتشرة في الظلام بالأعلى وبالأسفل. كانت تُصلي من أجلي.

وتذكرت لاحقًا وجهين منهم كانا لـ "مايكل سوليفان" وزوجته "بيج". أنا أتذكر رؤيتهم بشكل جانبي فقط، لكنني تعرفت عليهم بوضوح بعد عودتي واستعادتي للغة. كان "مايكل" حاضرًا بنفسه في غرفة العناية المركزة مرات عديدة ليقود الصلوات، أما "بيج" فلم تحضر أبدًا إلى غرفتي (لكنها كانت تصلي من أجلي أيضًا).

منحتني تلك الصلوات قوة. وربما لذلك، برغم شدة حزني، كان بداخلي ثقة غريبة أن كل شيء سيكون على ما يُرام. كانت تلك الكائنات تعرف أنني أَمرّ بمرحلة انتقالية، وكانوا ينشدون ويصلون ليساعدوا على رفع روحي المعنوية. كُنت متجهًا إلى داخل المجهول، لكن في تلك المرحلة كان لدي ثقة وإيمان كاملين بأنه سيتم الاعتناء بي، كما وعدتني رفيقتي على جناح الفراشة ووعدني الإله ذو المحبة غير المحدودة، بأنني أينما ذهبت، ستأتي معي السماء. ستأتي على هيئة الخالق، على هيئة "OM"، كما ستأتي على هيئة الملاك- ملاكي- الفتاة على جناح الفراشة.

فكُنت في طريق العودة، لكنني لم أكن وحيدًا، وعلمت أنني لن أشعر بالوحدة مرة أخرى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢١. قوس قزح

عندما أعادت "فيليس" التفكير في الأمر لاحقًا، وجدت أن أكثر ما تتذكره بشأن هذا الأسبوع هو المطر. كان مطرًا باردًا غزيرًا من سحب منخفضة لا تتباطأ ولا تسمح للشمس بالظهور من وسطها. لكن، في صباح ذلك الأحد بينما كانت تركن سيارتها عند المستشفى، حدث شيء غريب. كانت "فيليس" قد قرأت للتو رسالة من أحد مجموعات الصلاة في بوسطن تقول: "توقع معجزة". وبينما كانت تفكر في مقدار المعجزة التي عليها أن تتوقعها، كانت تساعد والدتي في النزول من السيارة، وأدركت كلتاهما أن المطر توقف. ومن جهة الشرق، كانت الشمس ترسل أشعتها عبر شق في الغطاء السحابي، لتُضيء الجبال الجميلة العتيقة في جهة الغرب وكذلك طبقة السُحب التي تعلوها، مانحة السُحب الرمادية مسحة ذهبية.

ثم، عندما نظرتا إلى القمم البعيدة، في الجهة المقابلة لبداية صعود شمس منتصف نوفمبر، كان هناك قوس قزح مثالي.

قادت "سيلفيا" سيارتها إلى المستشفى ومعها "هولي" و"بوند" للقاء متفق عليه مع طبيبي الرئيسي "سكوت ويد". كان دكتور "ويد" أيضًا صديقًا وجارًا وكان يُصارع مع أسوأ قرار قد يواجه الأطباء الذين يتعاملوا مع أمراض تهدد الحياة. فكلما طالت مدة بقائي في الغيبوبة، كلما زادت احتمالية أن أمضى ما تبقى من حياتي في حالة دائمة من اللاوعي. ولأن الالتهاب السحائي لديَّ لم يستجب للمضادات الحيوية، فمن المنطقي أن يتوقفوا عن استخدامها- عوضًا عن الاستمرار في علاج ما يكاد أن يكون غيبوبة مدى الحياة. وإن استطاعوا القضاء على الالتهاب السحائي سيكون ذلك لأتمكن فقط من أن أعيش شهور أو سنوات كجسم فقط يتمتع بجودة حياة مقدارها صفر.

قال دكتور "ويد" لـ"سيلفيا" و"هولي" بنبرة لطيفة لكنها متجهمة بشكل واضح في الوقت نفسه: "تفضلا بالجلوس".. ثم أكمل قائلاً:

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

"لقد تواصلت أنا ودكتور "بيرنان" مع خبراء في "دوك"، وفي جامعة فيرجينيا، وكليات طب "بومان جراي"، ويجب أن أخبركم أن الجميع اتفقوا على أن الأمور لا تبدو جيدة. ولو لم يُظهر "إيبن" أي تحسن خلال الاثني عشر ساعة القادمة، ففي الغالب ينبغي أن نفكر في وقف المضادات الحيوية. فأسبوع في غيبوبة نتيجة التهاب سحائي بكتيري حاد هو بالفعل أمر يتعدى حدود أي توقع منطقي للشفاء. وبالنظر إلى كل تلك الأمور، ربما يكون من الأفضل أن نترك الطبيعة تأخذ مجراها."

اعترضت "هولي" قائلة: "لكنني رأيت جفنيه يتحركان أمس، فعلاً، لقد تحركا كما لو كان يحاول أن يفتحهما. أنا واثقة مما رأيته."

فقال دكتور "ويد": "أنا لا أشك أنك رأيت ذلك، فعدد كرات دمه البيضاء قد انخفض كذلك. وهذه أخبار جيدة، ولا أستطيع أن أنكر ذلك. لكن عليكِ أن تري الموضوع في سياقه. لقد خففنا من المهدئات التي نعطيها لـ "إيبن" بشكل كبير، ومن الطبيعي الآن أن تُظهر فحوصاته نشاط عصبي أكبر مما كان له في الأيام السابقة. فالجزء الأدنى من عقله يعمل، لكن المستوى الأعلى من العمليات العقلية هو ما نحتاجه، وهو مازال غائبًا تمامًا. ومعظم مرضى الغيبوبة يُظهِرون بمرور الوقت مِقدارًا معينًا من التحسن الذي يوحي بنوع من الإفاقة. لكنهم لا يفيقون. ويكون ذلك نتيجة أن ساق الدماغ تدخل في حالة تُدعى يقظة الغيبوبة، للحفاظ على نمط من الممكن أن يظلوا عليه لشهور، أو سنوات. وفي الغالب هذا هو ما تعنيه حركة الأجفان. وينبغي أن أُخبرك مرة أخرى أن سبعة أيام هي مدة طويلة للغاية ليكون الشخص في غيبوبة نتيجة التهاب سحائي بكتيري.

كان دكتور "ويد" يستخدم كلمات كثيرة ليحاول تخفيف صدمة الخبر الذي كان من الممكن أن يقوله في جملة واحدة.

لقد حان الوقت ليتركوا جسدي يموت.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٢. ستة وجوه

وبينما كنت أنزل كانت تظهر من الوحل المزيد من الوجوه، تمامًا كما كانت عندما كنت أنزل إلى عالم "منظور دودة الأرض". لكن كان هناك شيء مختلف بشأن الوجوه هذه المرة. كانت الآن وجوه بشرية.

وكان من الواضح أنها تتكلم.

لم أكن قادرًا على تفسير ما يقولونه. لكنه كان يشبه إلى حد ما كارتون قديم لشارلي براون، حيث كان البالغين يتكلمون وكل ما تسمعه هو أصوات يتعذر فهمها. وفيما بعد عندما أعدت النظر في الموضوع، أدركت أنني تعرفت على ستة وجوه من التي رأيتها. منهم "سيلفيا"، و"هولي" وأختها "بيجي". كان هناك "سكوت ويد" و "سوزان رينتجيز". وكانت "سوزان" هي الوحيدة فيهم التي لم تكن فعليًا بجانبي في الساعات الأخيرة، لكنها، كانت بجانبي بطريقتها الخاصة في تلك الليلة، كما في الليلة السابقة جالسة في بيتها في شابل هيل ولكنها حاضرة معي عن طريق التخاطر.[٧]

عندما علمت بذلك لاحقًا، تحيرت جدًا، فوالدتي "بيتي" وأخواتي، اللاتي كن بجانبي طوال الأسبوع، مُمسكات بيدي بكل حب لساعاتٍ لا تنتهي، لم يكنَّ ضمن تلك الوجوه التي رأيتها في الوحل. كانت والدتي تعاني من كسر في قدمها، فكانت تستخدم مشاية لتتحرك، لكنها كانت حريصة على أن تأخذ دورها في السهر بجانبي. وكانت "فيليس" و"بيتسي" و"جين" جميعهن معي. ثم عَلِمت فيما بعد أنهن لم تكنَّ حاضرات في تلك الليلة الأخيرة. إذا فالوجوه التي رأيتها في الوحل، كانت لهؤلاء الحاضرين جسديًا في ذلك الصباح السابع من غيبوبتي، أو الليلة السابقة.

---

[٧] كما سبق وأوضحنا عن الكاتب وثقافته المسيحية البسيطة، فهو يعتقد في التخاطر العقلي ويفسر بعض مما حدث له في ضوء ذلك.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مرة أخرى، مع أنني في ذلك الوقت، أثناء نزولي، لم أكن أربط أي هويات أو أسماء بأيٍ من تلك الوجوه. إلا أنني علمت أو شعرت أنهم كانوا أشخاص مهمين بالنسبة لي بطريقةٍ ما.

أحدهم، بشكل خاص، جذبني نحوه بقدرة خاصة. وبدأ يشدني. برجة قوية تبدو وكأنها تؤثر بأعلى وأسفل بئر السحب المتسع الذي كنت أنزل من خلاله والذي به كائنات ملائكية تُصلي، وفجأة أدركت أن كائنات البوابة والمركز- الكائنات التي عرفتها وأحببتها كما لو كان دائمًا- لم تكن الكائنات الوحيدة التي عرفتها. بل عرفت وأحببت الكائنات التي تحتي أيضًا، تحتي في العالم الذي كنت أقترب منه بسرعة. الكائنات التي، حتى الآن، كنت قد نسيتها تمامًا.

كنت مُهتمًا بالستة وجوه، لكن بشكلٍ خاص بالوجه السادس. كان مألوفًا للغاية. وأدركت وأنا مصدومًا من الخوف أنه أيًا كان هذا الوجه، فهو وجه شخص يحتاجني. شخص لن يتعافى إن رحلت. إن تخليت عنه، لن يستطيع تحمل الخسارة - كالشعور الذي شعرت به عندما أُغلقت أبواب السماء. ستكون خيانة لا يمكنني أن أقترفها.

حتى تلك اللحظة، كنت حُرًا. ارتحلت عبر عوالم كما يفعل الرحالة: دون أي انشغال فعلي بشأن مصيرهم. لا تهم النتيجة في النهاية، لأنه حتى عندما كنت في المركز، لم يكن هناك أي قلق أو شعور بالذنب من أن أخذل أحدًا. وبالتأكيد كان هذا أحد أول الأمور التي تعلمتها عندما كنت مع الفتاة على جناح الفراشة فهي قالت لي: "لا يمكنك أن تُخطئ بشيء."

لكن الأمر مختلف الآن. مختلفًا لدرجة أنني للمرة الأولى في كل رحلتي، شعرت بخوفٍ عظيم. ليس خوفًا على نفسي، بل على تلك الوجوه- وبخاصةٍ ذلك الوجه السادس. وجه ما زلت لا أستطيع أن أتعرف عليه، لكنني علمت أنه هام جدًا بالنسبة لي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كانت تتضح تفاصيل هذا الوجه أكثر، إلى أن رأيت أنه كان في الحقيقة يناشدني أن أعود: أن أخاطر بالنزول الرهيب إلى العالم الذي بالأسفل لأكون معه مرة أخرى. ما زلت لا أستطيع أن أفهم كلماته، لكن بطريقةٍ ما فهمت منها أن لي دورًا في العالم الذي بالأسفل.

كان من المهم أن أعود. لي روابط هنا- روابط ينبغي أن أحترمها. وكلما اتضح الوجه، كلما زاد إدراكي لذلك. وكلما زاد تعرفي على الوجه.

كان وجه طفل صغير..

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٣. آخر ليلة وأول صباح

قبل أن تجلس "هولي" مع دكتور "ويد"، طَلَبَت من "بوند" أن ينتظرها خارجًا لأنها لم تريده أن يسمع ما كانت تخشى أنه سيكون خبر سيء للغاية. لكن "بوند" شعر بذلك، فوقف خارجًا بجوار الباب وسمع بعضًا من كلمات دكتور "ويد". سمع ما يكفي ليفهم حقيقة الموقف. ففهم أن الحقيقة هي أن والده لن يعود أبدًا للحياة.

فأسرع "بوند" إلى غرفتي وإلى سريري. وكان يبكي، ويُقبِّل جبهتي ويدلك كتفي. ثم فتح جفني وقال، موجهًا كلامه بشكل مباشر إلى عيني الفارغتين الزائغتين، "ستكون بخير، يا أبي. إنك ستكون بخير." وظل يردد هذه الكلمات، مرارًا وتكرارًا، مؤمنًا ببراءة الطفولة أنها ستتحقق إن كررها بالقدر الكافي.

وفي تلك الأثناء، في الغرفة التي بآخر الرواق، كانت "هولي" تحدق بالفراغ، محاولة بكل طاقتها أن تتقبل كلمات دكتور "ويد".

وأخيرًا، قالت" "أعتقد أن هذا يعني أن عليَّ أن أتصل بـ إبين في الجامعة ليأتي."

لم يفكر دكتور "ويد" كثيرًا في السؤال. بل أجاب في الحال: "نعم، أعتقد أنه من الأفضل أن تفعلي بذلك."

اقتربت "هولي" من النافذة الكبيرة لغرفة الاجتماعات، ونظرت خارجًا إلى جبال فيرجينا المبتلة من العاصفة وإن كانت مشمسة في تلك اللحظة، وأمسكت بهاتفها المحمول، لتتصل بـ"إبين".

وبينما كانت تفعل ذلك، وقفت "سيلفيا". وقالت "هولي" انتظري دقيقة، دعيني أدخل إليه مرة أخيرة."

دخلت "سيلفيا" غرفة العناية المركزة ووقفت بجانب السرير بجوار "بوند"، حيث كان يجلس صامتًا ويدلك يدي. ثم وضعت "سيلفيا" يدها على ذراعي وحركتها برفق. كانت

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

رأسي مائلة قليلاً إلى جانب واحد، كما كانت طوال الأسبوع. على مدار هذا الأسبوع كان الجميع ينظرون على وجهي، وليس إليه. ولم تُفتح عيناي إلا عندما كان الأطباء يفحصون اتساع حدقة العين استجابةً للضوء (وهو أحد أبسط وأكثر الطرق فاعلية لفحص عمل ساق المخ)، أو عندما كانت "هولي" و"بوند"، يخالفان توجيهات الأطباء المتكررة، ويُصران على فتحهما ليواجها عينين ميتتين محدقتين، لكن كل واحدة في اتجاه كعيني دمية تالفة.

لكن الآن، بينما كانت "سيلفيا" و"بوند" يحدقان في وجهي المتراخي، ويرفضان بكل إصرار أن يقبلا ما قد سمعاه للتو من الطبيب، حدث شيءٌ ما.

انفتحت عيناي.

فصرخت "سيلفيا". وأخبرتني لاحقًا أنها تفاجأت كذلك عندما بدأتُ في الحال انظر حولي. لأعلى وأسفل، هنا وهناك... لا بطريقة شخص بالغ يفيق من غيبوبة مدتها سبعة أيام، بل بطريقة طفل حديث الولادة، يتأمل العالم، ويستوعبه للمرة الأولى. وقد كان ذلك حقيقيًا إلى حدٍ ما.

أفاقت "سيلفيا" من صدمتها وأدركت أن هناك ما يزعجني. فركضت خارج الغرفة إلى "هولي" حيث كانت لا تزال واقفة عند النافذة الكبيرة، تتكلم مع "إبين" عبر الهاتف.

وصرخت "سيلفيا" قائلة "هولي... هولي! لقد أفاق. أفاق! اخبري "إبين" أن والده يعود للحياة."

حدقت "هولي" بـ"سيلفيا". وقالت في الهاتف: ""إبين" سوف أطلبك لاحقًا. إن والدك يعود... للحياة."

سارت "هولي"، ثم ركضت إلى داخل غرفة العناية المركزة، ودكتور "ويد" خلفها. لا شك أنني كنت أتقلب في السرير. ليس بشكل آلي كما كنت أفعل من قبل، بل لأنني كنت واعيًا، وكان من الواضح أن هناك ما يزعجني. في الحال فهم دكتور "ويد" ما الذي يزعجني، كانت أنبوبة التنفس التي لا تزال في حلقي. الأنبوبة التي لم أعد في حاجة إليها،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لأن عقلي وباقي جسمي معه، قد عادا إلى الحياة. فمد الطبيب يده، وقطع شريط التثبيت، وأخرج الأنبوبة بحرص.

اختنقت للحظة، ولهثت آخذًا أول شهيق بلا مساعدة منذ سبعة أيام، وكذلك نطقت بكلماتي الأولى منذ أسبوع، "شكرًا"

بينما كانت "فيليس" تخرج من المصعد، لا تزال تفكر في قوس قزح الذي قد رأته للتو. وكانت تدفع والدتي على كرسي متحرك. فدخلتا إلى الغرفة، وكادت "فيليس" تسقط على ظهرها من عدم التصديق. لقد كُنت جالسًا على سريري، محدقًا بهما كما كانتا محدقتين بي. كانت "بيتسي" تقفز لأعلى وأسفل. وعانقت "فيليس" وبكت كلاهما، ثم اقتربت "فيليس" ونظرت بعمق إلى عيني. فنظرت أنا أيضًا إليها، ثم نظرت إلى كل الموجودين حولي.

كانت عائلتي المُحبة وكل من كانوا يعتنون بي مجتمعين حول سريري، ومازالوا مذهولين من التحول الذي لا يمكن تفسيره، وكنت أنا مبتسمًا بسلام وسرور.

وقُلت: "كل شيء على ما يرام" وأنا أشع تلك الرسالة السعيدة بمظهري بنفس مقدار نطقي للكلمات. ونظرت إلى كل واحد منهم، بعمق، مُدركًا المعجزة الإلهية التي هي وجودنا نفسه.

وكررت كلماتي لتهدئة أي شك: "لا تقلقوا... كل شيء على ما يرام". وأخبرتني "فيليس" لاحقًا أنه كان يبدو كما لو كنت أنقل رسالة هامة من العالم الآخر، بأن العالم كما ينبغي أن يكون، وأننا ينبغي ألا نخاف. وقالت أنها عادةً ما كانت تتذكر تلك اللحظة عندما كانت تضايقها بعض الأمور الأرضية- فتجد راحة في معرفة أننا لسنا وحدنا أبدًا.

وبعد أن تعرفت على العالم المحيط، ورجعت إلى وجودي الأرضي. سألت من كانوا مجتمعين "ماذا تفعلون هنا؟"

فردت عليّ "فيليس" قائلة: "ماذا تفعل أنت هنا؟"

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٤. العودة

تصور "بوند" أن والده سيستيقظ، ينظر حوله، ويسأل عن بعض الأمور التي حدثت ثم يتابع ممارسة دوره كالأب الذي عرفه دائمًا.

لكنه اكتشف بسرعة، أن الأمر لن يكون بهذه البساطة. وقد حذر دكتور "ويد" "بوند" من أمرين. أولاً: أنه ينبغي ألا يعتمد على أن أتذكر أي شيء قلته عندما أفقت من الغيبوبة. وأوضح له أن عملية الذاكرة تتطلب قدرة عقلية كبيرة، وأن عقلي لم يستعد قدراته بالشكل الكافي ليقوم بمثل هذه العمليات المعقدة. ثانيًا: أنه ينبغي ألا يقلق كثيرًا بشأن ما أقوله خلال تلك الأيام الأولى، لأن معظمه سيبدو جنونًا إلى حدٍ كبير.

واتضحت صحة الأمرين. ففي ذلك الصباح الأول لعودتي إلى الحياة، أراني "بوند" وهو فخور الصورة التي رسمها مع "إبين" الرابع لكرات الدم البيضاء الخاصة بي وهي تهاجم بكتريا الإيكولاي.

فقلت "رائع، مذهل." فتوهج "بوند" من الفخر والإثارة.

ثم تابعت كلامي: "ما هي الأحوال بالخارج؟ ماذا تقول قراءات الكمبيوتر؟ ينبغي أن تتحرك، فأنا أستعد للقفز!"

فظهر الاحباط على وجه "بوند". بالتأكيد لم يكن هذا ما يتمنى أن يسمعه عندما أفيق.

كان لدي هلاوس جامحة، كُنت أحيا بخيالي مرة أخرى مع أكثر الأوقات إثارة في حياتي، بطريقة واقعية للغاية.

كنت في عقلي، أستعد للقفز من طائرة DC3 على ارتفاع ثلاثة أميال فوق سطح الأرض... وكنت آخر فرد سينضم للتشكيل، وهو موقعي المفضل. حيث يصل جسمي إلى أقصى قدرة على الطيران. اندفعت خارج باب الطائرة -كل ذلك في عقلي- حيث ضوء الشمس اللامع، بعد أن اتخذت وضع القفز بالرأس وذراعيّ مثنيتين خلفي، شاعرًا بضربة

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

مألوفة كانت تحدث عندما كنت أسقط تحت التيار الداعم، مُشاهدًا وأنا مقلوبًا رأسًا على عقب كيف بدأ بطن الطائرة الفضية الضخمة ينطلق عاليًا، ورفاساتها الضخمة تدور بحركة بطيئة، وانعكاس الأرض والسُحب تحتها واضحًا على أسفل بطنها. كنت أتأمل المنظر العجيب للأجنحة الإضافية والعجلات وهي تنزل، كما لو كانت ستهبط بينما لا تزال على ارتفاع أميال فوق الأرض.

ثنيت ذراعي بأكثر احكام أثناء نزولي بالرأس لأزيد من سرعتي لأكثر من ٢٢٠ ميلًا في الساعة، لا يوجد غير خوذتي الزرقاء المنقطة وكتفيّ في مقابل الهواء بالأعلى لأقاوم جاذبية الكوكب العملاق الذي بالأسفل، كنت أتحرك مسافة تفوق طول ملعب كرة قدم في كل ثانية، كانت الرياح تزأر حولي بقوة في سرعة تفوق الإعصار بثلاثة أضعاف، بصوت أعلى من أي شيء سمعته على الإطلاق.

مررت بين قمتي مجموعتين ضخمتين من السحب البيضاء المنتفخة، فنزلت كالصاروخ في الهوة الصافية بينهما، وتحتي من بعيد الأرض الخضراء والبحر الأزرق العميق، في اندفاع جامح مثير لأنضم لأصدقائي، وهم بالكاد مرئيين لأنهم تحتي بمسافة كبيرة، في تشكيل النجمة الثلجية الملونة، الذي يزداد في الحجم، كل لحظة، نتيجة انضمام قافزين آخرين.

كنت أتأرجح من بين كوني حاضرًا في غرفة العناية المركزة وبين كوني في حالة من الجنون أعيش في أوهام مشبعة بالأدرنالين للقفز المذهل من الطائرات.

كنت ما بين مختل العقل ومُدركًا للواقع.

لمدة يومين كنت أُثرثر بشأن القفز من الطائرة والطائرات، وشبكة الإنترنت. فبينما كان عقلي المادي يستعيد قدراته بالتدريج، دخلت في كون غريب ومرهق من جنون الاضطهاد. وصرت مهووسًا بخلفية قبيحة من "رسائل الإنترنت" تظهر كلما أغمضت عينيّ، وكانت أحيانًا تظهر على السقف عندما تكون عيناي مفتوحتان. وعندما أُغلق

coptic-books.blogspot.com

عيني كنت أسمع أصوات أناشيد رتيبة ذات صرير لا لحن لها، تختفي عادةً عندما أفتح عيني مرة أخرى. وظللت أشير بإصبعي في الهواء، مثل ET محاولاً أن أتحكم في رسائل الإنترنت المتدفقة أمامي، بالروسية والصينية.

باختصار، كنت مجنونًا إلى حدٍ ما.

كنت أميز أفراد عائلتي، وإن كنت كما في حالة "هولي"، لا أتذكر أسماءهم. كان الأمر يشبه إلى حدٍ ما عالم منظور دودة الأرض، لكن كابوسي بشكل أكثر، لأن ما سمعته ورأيته كان مربوطًا بأمور متعلقة بماضيَّ الإنساني، لكن في الوقت نفسه كان يفتقر تمامًا للوضوح المذهل والثراء النابض بالحياة- الذي يفوق الواقع- للبوابة والمركز. لا شك أنني كنت مرة أخرى أحيا داخل عقلي.

باستثناء اللحظات الأولى بعد أن فتحت عيني لأول مرة، وبدا فيها وكأني واضح الفكر، لم أعد مرة أخرى أتذكر أي شيء عن حياتي الإنسانية قبل الغيبوبة. كانت ذكرياتي الوحيدة خاصة بالمكان الذي كنت به منذ قليل، أي عالم منظور دودة الأرض القبيح القاسي، والبوابة الأنشودية، والمركز السماوي المذهل. كان عقلي- روحي في الحقيقية- يحاول أن يشق طريقه مرة أخرى إلى داخل بذلة الوجود المادي الضيقة والمحدودة للغاية، بحدودها الزمانية والمكانية، وفكرها الضيق، وقيود التواصل اللفظي. أمورًا كانت بالنسبة لي، حتى الأسبوع الماضي، هي الأشكال الوحيدة التي أعرفها للوجود، لكنها تبدو الآن وكأنها قيود مزعجة بشكل يفوق العادة.

اتسمت الحياة المادية بالدفاعية، بينما الحياة الروحية على النقيض تمامًا. هذا هو التفسير الوحيد الذي من الممكن أن أفسر به السبب الذي جعل رجوعي يقترن بمقدار كبير من الشعور بالاضطهاد. لقد صرت لمدة من الوقت مقتنعًا أن "هولي" -التي كنت لا أزال لا أذكر اسمها - وأطبائي كانوا يحاولون قتلي. كان لدي المزيد من الأحلام والأوهام بشأن الطائرات والقفز منها، وكان بعضها طويلًا ومعقدًا للغاية. وفي أطول، وأقوى، وأكثر تلك الأوهام تفصيلاً، وجدت نفسي في عيادة للسرطان في جنوب فلوريدا، مُتخيلاً

christianlib.com

سلالم متحركة في الهواء الطلق حيث كنت مُطارد من "هولي"، وضابطيّ شرطة من جنوب فلوريدا، ومصورَين من النينجا الآسيويين.

كنت في الحقيقة أعاني مما يُدعى "ذُهان العناية المركزة". وهو أمر طبيعي، بل ومتوقع، للمرضى الذين تعود عقولهم للعمل بعد أن توقفت لمدة طويلة. لقد رأيت ذلك مرات عديدة، لكن ليس من الداخل. ولا شك أن الأمر كان مختلفًا تمامًا من الداخل.

كان أكثر ما يثير الاهتمام بشأن هذه الكوابيس والأوهام المتعلقة بالشعور بالاضطهاد، هو أنها جميعًا كانت وبلا شك أوهام. قسم منها، خاصةً كابوس النينجا الطويل بجنوب فلوريدا، كان قويًا للغاية، ومُرعبًا تمامًا أثناء حدوثه. لكن بعد أن انتهت هذه الفترة، صارت هذه الأمور واضحة تمامًا، هي أمور لفقها عقلي المُحاصر بينما كان يحاول أن يستعيد قدراته. وقد كانت بعض الأحلام التي انتابتني أثناء هذه الفترة واقعية بشكل مذهل ومرعب. لكن في النهاية صار وضاحًا لي كيف أن حالة الحلم هذه كانت مختلفة تمامًا عن العمق الذي يفوق الواقع الذي مررت به في الغيبوبة.

أما بالنسبة لموضوعات الصواريخ، والطائرات، والقفز من الطائرات التي كنت أتخيلها بشكل ثابت للغاية، فكانت، كما أدركت لاحقًا، دقيقة للغاية من وجهة النظر الرمزية. لأن الحقيقة كانت أنني كنت أقوم بعودة خطرة من مكان بعيد جدًا، إلى محطة فضاء عقلي المهجورة والتي عادت للعمل مرة أخرى. ولا يستطيع أحد أن يطلب تشبيه أرضي أفضل لما كان يحدث لي خلال الأسبوع الذي كنت فيه خارج جسمي، من انطلاق الصاروخ.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٥. لم أصل بعد

لم يكن "بوند" هو الوحيد الذي وجد صعوبة في قبول الشخص المجنون الذي كنته خلال تلك الأيام الأولى من عودتي. ففي اليوم الثاني من عودتي إلى الحياة- أي يوم الاثنين- اتصلت فيليس بابني "إبين " على جهاز الكمبيوتر الخاص به باستخدام برنامج Skype.

وقالت وهي توجه كاميرا الفيديو نحوي: "ها هو والدك يا "إبين".

فقال بسعادة: "مرحبًا يا أبي! كيف الحال؟"

للحظة كشرت وحدقت بشاشة الكمبيوتر. وعندما تكلمت أخيرًا، تحطم "إبين" حيث كنت أتحدث بشكل بطيء للغاية، ولم أقل كلامًا منطقيًا. وقد قال لي "إبين" لاحقًا: "كنت تتكلم كزومبي، كشخص يتعاطي المخدرات." وللأسف لم يكن أحدًا قد نبهه مسبقًا بشأن احتمالية إصابتي بذُهان العناية المركزة.

بالتدريج تضاءل جنون الاضطهاد لديَّ، وصار تفكيري وحديثي أكثر عقلانية. وبعد أن أفقت بيومين، تم نقلي إلى وحدة العناية الأقل من المُركزة في قسم الأعصاب. وقدمت الممرضات أغطية لـ "فيليس" و"بيتسي" لتتمكنا من النوم بجواري. حيث لم أكن أثق سوى بهما، لأنهما كانتا تمنحاني شعورًا بالأمان، والارتباط بواقعي الجديد.

كانت المشكلة الوحيدة هي أنني لم أنام. وأبقيتهم مستيقظين طوال الليل، متحدثًا عن الانترنت ومحطات الفضاء، والعملاء الروسيين المزدوجين، وأمورًا كثيرة لا معنى لها. حاولت "فيليس" أن تقنع الممرضات أنني أعاني من سعال، على أمل أن القليل من دواء السعال سيجعلني أنام ساعة متصلة على الأقل. كانت حالتي تشبه حالة طفل حديث الولادة لا يتقيد بمواعيد النوم الطبيعية.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وفي لحظات هدوئي، كانت "فيليس" و"بيتسي" تحاولان أن تعيداني مرة أخرى إلى العالم الأرضي. كانتا ترويان لي كل أنواع القصص التي حدثت في طفولتنا، وكانت تسحرني تلك القصص كما لو كنت أسمعها للمرة الأولى. وكلما كانتا تتكلمان أكثر، كلما بدأ شيئًا هامًا يومض داخلي، وهو إدراك أنني في الحقيقة، كنت حاضرًا بنفسي تلك الأحداث.

ولقد أخبرتني أختاي لاحقًا، أنهما استطاعتا بسرعة أن تريا أخيرًا أخاهما الذي كانتا تعرفانه، يظهر عبر الضباب الكثيف لثرثرة يغلب عليها جنون الاضطهاد.

قالت لي "بيتسي" لاحقًا: "كان الأمر مذهلاً، كنت قد أفقت لتوك من غيبوبة، ولم تكن مدركًا بالكامل للمكان الذي كنت به ولما كان يحدث، وكنت تتكلم نصف الوقت عن أمور جنونية، ولكن حسك الفكاهي كان بخير. كان من الواضح أن هذا أنت فعلاً. كنت قد عُدت!".

كما قالت لي "فيليس" لاحقًا: "كان أحد أول الأمور التي قمت بها هو أنك أطلقت دعابة بشأن إطعامك لنفسك. لقد كنا مستعدات لإطعامك ملعقة ملعقة بقدر ما يتطلب الأمر من وقت. لكنك لم تقبل ذلك. وأصررت أن تُدخِل جيلي البرتقال إلى فمك بنفسك."

وبينما كانت محركات عقلي التي فقدت صوابها مؤقتًا تعود للعمل بشكل أفضل، كنت أشاهد نفسي أقوم بأمور وأقول أشياء وأتعجب: من أين جاء هذا؟ ففي وقتٍ سابق، جاءت للزيارة صديقة من "لينشبرج" تُدعى "جاكي". كنت أنا و"هولي" نعرف "جاكي" وزوجها "رون" جيدًا، لأننا قد اشترينا منزلنا منهما. وبدون أن أفكر في الأمر، ظهرت الكياسة الاجتماعية لسكان الجنوبية المتأصلة عميقًا داخلي. فبمجرد أن رأيت "جاكي" سألتها في الحال: كيف حال "رون" ؟

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وبعد أيام قليلة، بدأت أقوم بين الحين والآخر ببعض الحوارات العقلانية الحقيقية مع من يقوموا بزيارتي، وكان من المذهل أن أرى كيف أن قدرًا كبيرًا من هذه الروابط كان أوتوماتيكيًا (آلياً) ولم يتطلب جهدًا كبيرًا من جانبي. كطائرة تعمل بالطيار الآلي، كان عقلي إلى حدٍ ما يتعامل مع الصور المألوفة والمتزايدة للخبرة الإنسانية. كنت أحظى بإثبات واضح لحقيقة قد عرفتها جيدًا كجراح للمخ والأعصاب، وهي أن للعقل تقنية مذهلة فعلاً.

بالتأكيد، كان السؤال الذي لم ينطق به أحد ولكنه كان يشغل عقل الجميع (بما في ذلك عقلي في لحظاتي الأكثر عقلانية) هو إلى أي مدى سأتحسن؟ هل فعلاً سأعود تمامًا كما كنت، أم أن الإيكولاي قد تسببت على الأقل في بعض الأضرار التي أجمع الأطباء على أنه من المؤكد أنها ستتسبب بها؟ وكان هذا الانتظار اليومي يُمزق الجميع، خاصةً "هولي"، التي كانت تخشى أن هذا التحسن المعجزي سيتوقف، ويبقي لها فقط مجرد جزء من الإنسان الذي كانت تعرفه.

لكن يومًا بعد يوم، كان يرجع المزيد والمزيد من هذا الشخص (أي مني). في اللغة والذكريات والتمييز. والأسلوب العابث الذي كنت معروفًا به، عاد هو أيضًا. وبينما كانوا سعداء بأن يروا أنني قد استعدت حسي الفكاهي، إلا أن أختاي لم تكونا دائمًا سعيدتين بالطريقة التي أختار أن استخدمه بها. ففي مساء يوم الاثنين لمست "فيليس" جبيني فتراجعت.

وصرخت "آه.. هذا مؤلم!"

ثم بعد أن استمتعت بتعبيرات الفزع على وجوه الجميع ، قلت "إني أمزح."

تفاجأ الجميع من سرعة شفائي، إلا أنا. لأني في ذلك الوقت، لم أكن أُدرك كم كنت قريبًا من الموت. وبينما كان أصدقائي وعائلتي، واحدًا واحدًا، يرجعون إلى حياتهم، تمنيت لهم الخير وظللت سعيدًا وأنا أجهل المأساة التي كادت أن تحدث. وكنت في حالة هياج

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

للغاية لدرجة أن أحد أطباء الأعصاب الذي كان يُقيمني لتحديد مكان إعادة التأهيل المناسب، أصر على أنني كنت "كالمنتشي" وأنني في الغالب أعاني من إصابة بالمخ. كان هذا الطبيب مثلي، تقليدي يرتدي ربطة عنق، وردًا على تشخيصه أخبرت أختاي، بعد أن غادر، أنه كان "سطحي المشاعر بالنظر إلى كونه متحمسًا ذو ربطة عنق."

حتى في ذلك الوقت، كنت أعرف شيئًا سيتقبله المزيد والمزيد من الناس حولي أيضًا. وهو أنني برأي الأطباء أو بدون رأي الأطباء، لم أكن مريضًا، أو أعاني من إصابة بالمخ. لقد كنت صحيحًا تمامًا.

في الحقيقة، رغم أنني في هذه اللحظة لم أكن أعرف سوى ذلك، إلا أنني كنت في الحقيقة "بخير" لأول مرة في حياتي كلها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٦. نشر الخبر

كنت "بخير حقًا" بالرغم من أن هناك بعض الأمور التي تحتاج مزيد من العمل والمجهود. وبعد أيام قليلة من تحويلي إلى عيادة خارجية لإعادة التأهيل، اتصلت بـ"إبين" في الجامعة. وذكر لي أنه كان يعمل بحث في أحد موضوعات علم الأعصاب التي يدرسها. فتطوعت لأساعده لكنني ندمت على ذلك بسرعة. حيث كان التركيز في هذا الموضوع أصعب مما توقعت بكثير، والمصطلحات العلمية التي اعتقدت أنني استعدتها تمامًا امتنعت فجأة عن أن تخطر ببالي. وأدركت وأنا مصدوم أنه مازال أمامي طريقًا طويلاً لأعود كما كنت.

لكن بالتدريج استعدت ذلك الجانب أيضًا. حيث استيقظت في أحد الأيام ووجدت نفسي أمتلك كل المعرفة العلمية والطبية التي لم تكن لدي في اليوم السابق. وكان هذا أحد أغرب الجوانب في تجربتي، أن أفتح عيني في الصباح وأنا أمتلك تفاصيل علمية أكثر من التي قد أكتسبها من الدراسة والخبرة في العمل على مدى عمر كامل مرة أخرى.

وبينما استعدت معرفتي بعلم الأعصاب ببطء وحذر، كانت ذكرياتي عما حدث أثناء الأسبوع الذي أمضيته خارج جسدي تظهر في ذاكرتي بوضوح وقوة مذهلين. وكان ما حدث خارج هذا العالم الأرضي هو السبب في حالة السعادة التي كنت عليها عندما افقت، والسعادة المتناهية التي ظلت ملازمة لي. كُنت سعيدًا بشكلٍ لا يوصف لأنني رجعت إلى الناس الذين أحببتهم، لكنني أيضًا كنت سعيدًا لأنني قد فهمت لأول مرة من أكون، وما هي طبيعة العالم الذي نعيش فيه.

كنت متحمسًا بشكل شديد وساذج، لنَقل هذه الخبرات للآخرين، خاصةً زملائي الأطباء. ففي النهاية، قد غيَّر ما مررت به معتقداتي التي تمسكت بها لزمنٍ طويل بشأن طبيعة العقل، وطبيعة الوعي، وحتى بشأن ما تعنيه الحياة نفسها، وما لا تعنيه. فمن الذي لا يتحمس لسماع اكتشافاتي هذه؟!

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لكن اتضح أن من يتحمس للسماع هم قليلون. خاصةً من بين الحاصلين على درجات علمية في الطب.

لا تسيء فهمي، كان أطبائي سعداء للغاية من أجلي. وكانوا يقولون "هذا رائع يا "إبين"، مرددين نفس الكلمات التي كنت أقولها لعدد كبير من مرضاي، الذين كانوا يحاولون أن يخبرونني بشأن خبراتهم في العالم الآخر التي مروا بها أثناء الجراحة. كانوا يقولون لي: "لقد كنت مريضًا للغاية. وعقلك كان مُشبعًا بالصديد. حتى أننا لا نصدق أنك هنا تتحدث معنا عن الأمر. وأنت نفسك تعلم ما يستطيع العقل أن يختلقه عندما يصل إلى هذه المرحلة."

باختصار لم يستطيعوا أن يُدخِلوا في عقولهم ما حاولت جاهدًا أن أخبرهم به.

لكن كيف يمكنني أن ألومهم؟ فلا شك أنني أنا أيضًا لم أكن سأفهم الأمر، فيما مضى.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٧. العودة إلى البيت

رجعت إلى البيت في ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٨، بعد عيد الشكر بيومين، رجعت إلى البيت وأنا مليء بالعرفان بالجميل. وقام "إبين" بالقيادة طوال الليل ليفاجئني في الصباح التالي. فآخر مرة كان فيها معي كنت في غيبوبة عميقة، وكان لا يزال يحاول استيعاب حقيقة أنني ما زلت على قيد الحياة. وكان مشتاقًا لرؤيتي لدرجة أن مخالفة مرورية قد حُرِّرَت له لتجاوزه السرعة القانونية أثناء عبوره مقاطعة "نيلسون" شمال "لينشبرج".

كنت مستيقظًا منذ ساعات، جالسًا على كرسيَّ المريح بالقرب من المدفأة في حجرة المكتب المريحة المبطنة بالخشب، أفكر في كل ما مررت به. دخل "إبين" من الباب بعد السادسة صباحًا بلحظات. فوقفت وحضنته طويلاً، فأصابه الذهول. حيث أن آخر مرة رآني فيها كان من خلال برنامج Skype بينما كنت في المستشفى، وبالكاد كنت قادرًا على تكوين جملة مفيدة. أما الآن، باستثناء كوني ضعيف الجسم ويوجد محلول وريدي مثبت بذراعي، فقد رجعت إلى دوري المفضل في الحياة، وهو كوني والدًا لـ"إبين" و"بوند".

حسنًا، أكاد أكون رجعت كما كنت. لكن كان "إبين" يدرك أن هناك شيئًا آخر مختلفًا بي. وأخبرني "إبين" لاحقًا أنه عندما رآني للوهلة الأولى في ذلك اليوم، لفت نظره في الحال كم كنت "حاضرًا".

فقال لي: "كنت واضحًا جدًا، ومركزًا للغاية، كما لو كان هناك نوع من الضوء يسطع داخلك."

فلم أهدر وقتًا وشاركته في أفكاري.

وأخبرته قائلاً: "أنا متشوق جدًا أن أقرأ كل ما أتمكن من قراءته بهذا الشأن، كان كل شيء واقعيًا للغاية يا "إبين" يكاد يكون أكثر واقعية من أن يكون واقعيًا، إن كان ذلك منطقيًا. أريد أن أكتب عن الأمر ليقرأه علماء الأعصاب الآخرين. وأريد أن أقرأ عن تجارب العودة من الموت وما اختبره الآخرين. لا أصدق أنني لم آخذ هذه الأمور

coptic-books.blogspot.com

بجدية من قبل، ولم أصغ أبدًا لما كان يخبرني به مرضاي. كيف لم يكن لدي الفضول الكافي لألقي ولو مجرد نظرة على مثل هذه الكتابات."

لم يقل "إبين" شيئًا في البداية، لكن كان من الواضح أنه كان يفكر في النصيحة المناسبة التي يقدمها لي. فجلس مقابلي، وساعدني على إدراك ما كان ينبغي أن يكون واضحًا أمامي.

قال: "أنا أصدقك يا أبي. لكن فكر في الأمر. إن أردت أن يكون ذلك ذو فائدة للآخرين، فآخر ما ينبغي أن تفعله هو أن تقرأ ما كتبه الآخرين."

فسألته: "إذًا، ماذا ينبغي أن أفعل؟"

قال: "اكتب.. اكتب كل ما رأيته، كل ذكرياتك، على قدر ما تستطيع أن تتذكره من دقة. لكن لا تقرأ أي كتب أو مقالات عن تجارب العودة من الموت لأشخاص آخرين، أو عن الفيزياء أو علم الكونيات. لا تفعل ذلك حتى تكون قد دونت كل ما حدث لك. لا تتحدث إلى أمي أو أي شخصٍ آخر بشأن ما حدث بينما كنت في الغيبوبة، أو على الأقل حاول أن تتحاشى ذلك. يمكنك أن تفعل كل ما تريده فيما بعد، أليس كذلك؟ تذكر كيف كنت دائمًا تخبرني أن الملاحظة تأتي أولاً، ثم التفسير. إن أردت أن يكون ما حدث لك ذو قيمة علمية، ينبغي أن تسجل الأمر بأكبر قدر ممكن من الوضوح والدقة قبل أن تبدأ القيام بأي مقارنات مع ما حدث للآخرين."

ربما كانت هذه أكثر نصيحة حكيمة قدمها أحدًا لي، وبالفعل عملت بها. كان "إبين" مُحقًا حيث أن ما أردته حقًا، أكثر من أي شيء آخر، هو أن استخدم تجربتي، كما آمل، في مساعدة الآخرين. وكلما استعدت المزيد من عقلي العلمي، كلما رأيت بشكلٍ أوضح كم كان كل ما تعلمته على مر عقود من الدراسة والممارسة العملية للطب، يتعارض بشكل جذري مع ما اختبرته، وكلما أدركت أن العقل والشخصية (أو كما يدعوه البعض،

christianlib.com

النفس أو الروح) تظل موجودة فيما وراء الجسد. كلما أيقنت أنه ينبغي أن أخبر العالم بقصتي.

وعلى مدار الأسابيع الستة التالية أو ما يقرب من ذلك، كانت معظم الأيام تمر بنفس الطريقة. كنت أستيقظ في حوالي الثانية أو الثانية ونصف صباحًا، شاعرًا بسعادة غامرة وطاقة لمجرد أنني على قيد الحياة فأقفز من سريري. أشعل المدفأة، وأجلس على الكرسي الجلدي القديم، وأكتب. كنت أحاول أن أسترجع كل تفاصيل رحلاتي من وإلى المركز، وما شعرت به بينما كنت أتعلم دروسه العديدة التي تغير الحياة. مع أن كلمة "أحاول" ليست هي الكلمة المناسبة. لأن الذكريات كانت موجودة واضحة للغاية حيث تركتها.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٨. ما يفوق الواقع

"يوجد طريقتين لتكون مخدوعًا. إحداهما
أن تصدق ما ليس حقيقيًا؛
والأخرى أن ترفض تصديق ما هو حقيقي."
سورين كيركغارد (١٨١٣- ١٨٥٥)

في كل ما كتبته، كانت هناك كلمة تظهر مرارًا وتكرارًا. وهي كلمة "واقعي".

لم أدرك أبدًا قبل غيبوبتي، كم من الممكن لكلمة أن تكون مخادعة. فالطريقة التي تعلمت بها أن أفكر في هذه الكلمة، سواء في كلية الطب أو في مدرسة الفهم المنطقي التي تُدعى الحياة، هي أن الشيء إما يكون واقعيًا (حادث سيارة، أو مباراة كرة قدم، أو طعام موضوع أمامك على المنضدة) أو لا يكون. وفي سنوات عملي كجراح للمخ والأعصاب، رأيت العديد من الناس يصابون بهلاوس، واعتقدت أنني أعرف كم من الممكن أن تكون مثل هذه الظاهرة غير الواقعية مخيفة لمن يعانون منها. وخلال أيامي القليلة من ذهان العناية المركزة، أُتيحت لي الفرصة لأختبر كذلك بعض الكوابيس الواقعية جدًا. لكن بمجرد انتهائها، أدركت بسرعة حقيقة أن هذه الكوابيس كانت مجرد أوهام، كانت سلسلة من الأوهام العصبية المُتعاقبة أثارتها دائرة كهربية لعقل يصارع ليعود للعمل مرة أخرى.

لكن بينما كُنت في الغيبوبة لم تكن المشكلة أن عقلي لم يكن يعمل جيدًا. بل أنه لم يكن يعمل على الإطلاق. كان الجزء من العقل، الذي تعلمت خلال سنوات دراستي في كلية الطب أنه المسئول عن خلق العالم الذي كنت أعيش به وأتحرك فيه والمسئول عن أخذ المعلومات الخام التي تدخل من خلال حواسي ليحولها إلى كون ذو معنى، مُعطلاً وغائبًا. وبالرغم من كل ذلك، كنت حيًا ومُدركًا، وواعيًا حقًا في كون يتسم فوق كل

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

شيء بالمحبة، والوعي، والواقعية. (ها قد كررت الكلمة مرة أخرى). لم يكن هناك بالنسبة لي أي جدال بشأن هذه الحقيقة. وقد عرفتها تمامًا لدرجة أنني تألمَّت.

ما اختبرته كان أكثر واقعية من البيت الذي أجلس به، وأكثر واقعية من الحطب الذي يحترق داخل المدفأة. لكن لم يكن هناك مكان لذلك الواقع في أسلوب التفكير العلمي و الطب الذي أمضيت سنوات لأكتسبه.

كيف سأتمكن من خلق مساحة لهاذين الواقعين ليوجدا معًا؟!

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٢٩. تجربة مشتركة

أخيرًا جاء اليوم الذي أنهيت فيه كتابة كل ما استطعت، حتى آخر ذكرى لي عن عالم منظور دودة الأرض، والبوابة، والمركز.

ثم حان وقت القراءة. فانغمست في محيط من الكتابات الخاصة بتجارب العودة من الموت، وهو محيط لم أغمس فيه أصبعًا من قبل. ولم يتطلب الأمر وقتًا طويلاً لأدرك أن كثيرين قد اختبروا نفس الأمور التي اختبرتها، سواء في السنوات الأخيرة أو منذ قرونٍ ماضية. ليست كل تجارب العودة من الموت واحدة، بل كل واحدة منها فريدة، وإن كانت تظهر فيها نفس العناصر مرارًا وتكرارًا، وقد ميزت العديد منها لأني رأيته في تجربتي. روايات عن عبور نفق مظلم أو وادي للوصول إلى مساحات طبيعية مضيئة ومفعمة بالحياة، تفوق الواقع، كانت توجد عناصر قديمة كمصر واليونان القديمتين. كائنات ملائكية، أحيانًا مجنحة، وأحيانًا لا، والإيمان بأن مثل هذه الكائنات هي حارسة، عملها أن تراقب أعمال الناس على الأرض وترحب بهم عندما يتركونها. الشعور بالقدرة على الرؤية في كل الاتجاهات في نفس الوقت؛ والشعور بأنهم فوق الوقت الأرضي، وفوق كل شيء؛ سماع موسيقى تشبه النشيد، تدخل إلى كيان الإنسان بالكامل وليس إلى أذنيه فقط؛ القبول المباشر والفوري، بدون أي صعوبة على الإطلاق للمفاهيم التي تتطلب في الظروف الطبيعية وقتًا طويلاً جدًا وقدرًا كبيرًا من الدراسة ليُمكن فهمها، والشعور بقوة الحب غير المشروط.

وشعرت مرارًا وتكرارًا، في الكتابات الحديثة لمن اقتربوا من الموت وفي الكتابات الروحية الأقدم، أن الراوي يصارع مع قيود اللغة الأرضية، محاولاً جمع السمك الذي اصطاده على سطح مركب اللغة والمفاهيم البشرية... وعادةً، يفشل بدرجةٍ ما.

coptic-books.blogspot.com

ورغم ذلك، فكل محاولة تعجز، للأسف، عن تحقيق هدفها، يجاهد فيها شخص مع اللغة والمفاهيم لينقل هذا الكم العظيم إلى القارئ، أفهم هدف الراوي وما يأمل في أن يكشفه بكل عظمته غير المحدودة، لكنه لا يستطيع ذلك ببساطة.

فأقول لنفسي بينما أقرأ: نعم! أنا أفهم.

كانت تلك الكتب، وما بها، كلها بالتأكيد موجودة قبل تجربتي. لكنني لم ألق عليها نظرة أبدًا. لم أقرأها، بل ولم أهتم بها على الإطلاق. ببساطة، لم أكن متقبلا لأن يكون هناك أي صدق وراء أن جزء من الإنسان يظل حيًا رغم موت الجسد. كنت الطبيب المواكب للتطور، لكنني كنت في الوقت نفسه مُتشككًا، وبما أنني كنت كذلك، أستطيع أن أخبرك أن معظم المتشككين ليسوا متشككين حقيقيين بالفعل. لأنه لكي تكون متشككًا فعلاً، ينبغي أن تختبر الشيء، وتأخذه بجدية. وأنا، كالعديد من الأطباء، لم أمنح نفسي الفرصة لأكتشف تجارب العودة من الموت؛ بل ببساطة "كنت أعلم" أنها مستحيلة.

قمت بقراءة السجلات الطبية للفترة التي أمضيتها في الغيبوبة، وهو وقت تم تسجيله بدقة، وبطريقة علمية منذ البداية. ونظرت إلى صور الأشعة الخاصة بي كما لو كانت لأحد مرضاي، فاتضح لي أخيرًا كم كان مرضي خطيرًا.

ينفرد الالتهاب السحائي البكتيري عن باقي الأمراض بالطريقة التي يهاجم بها القشرة الخارجية للمخ بينما يترك تكويناته الداخلية سليمة. فالبكتريا تُدمر الجزء الإنساني من المخ أولاً، ثم في النهاية تكون ميتة عندما تهاجم التكوينات الأعمق المدبرة للحياة والمشتركة بيننا وبين الحيوانات، التي في العمق تحت الجزء الإنساني.

أما الحالات الأخرى التي من الممكن أن تُتلف القشرة الخارجية وتتسبب في فقدان الوعي: فهي الإصابة بالرأس، السكتة الدماغية، النزيف بالمخ أو الأورام بالمخ، وهي ليست بنفس فاعلية الالتهاب السحائي البكتيري في الاتلاف الكامل للسطح الكلي

christianlib.com

للقشرة الخارجية للمخ؛ بل وتشمل في الغالب مجرد جزء من القشرة الخارجية، وتترك باقي الأجزاء سليمة وقادرة على العمل. ليس ذلك فقط، بل يصل الضرر كذلك إلى الأجزاء الأعمق والأكثر بدائية من المخ.

وبالنظر إلى كل هذا، فإنه لا جدال أن الالتهاب السحائي البكتيري هو أفضل مرض من الممكن أن يجده أحدًا إن كان يبحث عن محاكاة للموت الإنساني دون أن يتسبب في الموت فعليًا. والحقيقة المُحزنة هي أن أي شخص يصل لدرجة المرض التي وصلت لها نتيجة الالتهاب السحائي البكتيري لا يعود أبدًا ليروي القصة.

وبالرغم من أن التجربة قديمة قدم التاريخ، إلا أن عبارة "تجربة العودة من الموت" -بغض النظر إن كان يُنظر لها على أنها حقيقة أو خيال لا أساس له- لم تصر مصطلحًا معروفًا إلا في وقت حديث نسبيًا.

ففي الستينات، تم تطوير تقنيات جديدة تسمح للأطباء بإنعاش المرضى الذين يعانون من أزمات قلبية. وهم المرضى الذين كان مصيرهم الموت قبل ذلك، صار يمكن إعادتهم الآن مرة أخرى إلى أرض الأحياء. ودون أن يدركوا ذلك، كان هؤلاء الأطباء، من خلال جهودهم في إنقاذ المرضى، يُنتجون فصيل من المرتحلين إلى ما وراء الأرض، وهم أشخاص ألقوا نظرة خلف الحجاب وعادوا ليخبرونا بالأمر. واليوم يصل عددهم إلى الملايين. ثم في عام ١٩٧٥، نشر طالب طب يُدعى "ريموند مودي" كتابًا يُدعى "الحياة بعد الحياة" يصف فيه تجربة رجل يُدعى "جورج ريتشي". كان "ريتشي" قد توفي نتيجة أزمة قلبية كأحد مضاعفات التهاب رئوي وكان خارج جسده لمدة تسع دقائق. فنزل في نفق، وزار مناطق سماوية وأخرى جحيمية، والتقى بكيان نوراني قال أنه يسوع، وأحس بسلام وسعادة وجد صعوبة في وصفهما بالكلمات من عظمة مقدارهما. ومن هنا بدأ العصر الحديث لتجارب العودة من الموت.

لا أستطيع أن أدَّعي الجهل التام بكتاب "مودي"، لكنني بالتأكيد لم أقرأه أبدًا. لم أكن في حاجة إلى ذلك، لأنني كنت أعلم، قبل كل شيء، أن فكرة أن الأزمة القلبية تمثل

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

نوعًا من الاقتراب من الموت كان مجرد هراء. معظم ما كُتب عن تجارب العودة من الموت يكون عن مرضى توقف قلبهم لدقائق قليلة، عادةً بعد حادث أو على منضدة العمليات. لكن فكرة أن الأزمة القلبية تمثل موتًا هو مفهوم قديم وانتهى منذ حوالي خمسين عامًا. لا زال العديد من غير المتخصصين يعتقدون أنه إن نجا شخص من أزمة قلبية، فهو إذًا قد "مات" وعاد للحياة، لكن المجتمع الطبي قد قام بتعديل تعريفه للموت فصار يركز على المخ، وليس القلب[٨]. ولا ترتبط الأزمة القلبية بالموت إلا من جهة تأثيرها على المخ. ففي خلال ثواني من الأزمة القلبية، يؤدي توقف تدفق الدم إلى المخ إلى تعطل واسع الانتشار في النشاط العصبي المشترك وفقدان الوعي.

وعلى مدى نصف قرن، يقوم الجراحين بشكل منتظم بإيقاف القلب ما بين دقائق وساعات في جراحات القلب وأحيانًا في جراحات الأعصاب، مستخدمين مضخات للقلب والرئة وأحيانًا يقوموا بتبريد المخ لتحسين قدرته على الحياة تحت مثل هذه الضغوط ولا يحدث موت دماغي. وحتى الشخص الذي يتوقف قلبه في الطريق قد ينجو من الإصابة بالمخ، بشرط أن يبدأ شخص ما في القيام بإنعاش قلبي رئوي له في خلال أربع دقائق ويتمكن القلب في النهاية من أن يعمل مرة أخرى. فطالما يرتحل الدم المشبع بالأكسجين إلى المخ، فالمخ، وبالتالي الشخص، يظل حيًا، وإن كان يظل فاقدًا للوعي بشكل مؤقت.

كانت هذه المعلومات هي كل ما أحتاجه لأتجاهل كتاب "مودي" دون حتى أن أفتحه. لكنني فتحته الآن، وبينما كنت أقرأ القصص التي رواها "مودي" وأقارنها بما مررت به بنفسي، جعلني ذلك أُغير وجهة نظري تمامًا. وصار لدي القليل من الشك في أنه على الأقل بعض الناس في تلك القصص قد تركوا فعليًا أجسامهم المادية. وقد كانت أوجه التشابه مع ما اختبرته أنا نفسي فيما وراء الجسد مبهرة للغاية.

---

[٨] منذ تأسيس معيار الموت الدماغي عام ١٩٦٨، والذي يعتمد على اكتشافات حاسمة في الفحص العصبي للمريض

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

كانت الأجزاء الأكثر بدائية من عقلي، الأجزاء المُدبرة للحياة، تعمل طوال أو غالبية الوقت أثناء غيبوبتي. لكن فيما يتعلق بالجزء من عقلي الذي سيخبرك كل علماء المخ أنه مسئول عن الجانب الإنساني مني، فقد كان غائبًا. استطعت أن أرى ذلك في صور الأشعة، وفي أرقام التحاليل، وفي نتائج الفحوصات العصبية، وفي كل البيانات التي سُجلت بدقة للأسبوع الذي أمضيته في المستشفى. وبسرعة بدأت أدرك أن تجربة عودتي من الموت كانت تجربة يكاد لا يشوبها أي نقص، وربما أحد أكثر التجارب اقناعًا بين مثل هذه الحالات في التاريخ الحديث .وما يهم فعلاً في حالتي ليس هو ما حدث لي شخصيًا، بل الكمال، وعدم وجود أي فرصة للجدال أو الشك، من الناحية الطبية، في أن الأمر كان كله خيال.

من الصعب جدًا وصف تجربة العودة من الموت، لكن القيام بذلك في مواجهة من يعملون بالطب ويرفضون أن يقبلوا إمكانية هذا الأمر، يكون أصعب بكثير. ونظرًا لعملي كعالم أعصاب وفي الوقت نفسه مروري بتجربتي الخاصة من العودة من الموت، فأنا لدي الآن فرصة فريدة لأجعل الأمر أكثر قبولاً.

coptic-books.blogspot.com

٣٠. العودة من بين الأموات

"الاقتراب من الموت، يتساوى فيه الكل، ويؤثر في الكل بنفس الطريقة، لا يستطيع سوى كاتب من بين الأموات أن يُعبر عنه كما ينبغي."

هيرمان ميلفيل (١٨١٩- ١٨٩١)

حيثما ذهبت في تلك الأسابيع القليلة الأولى، كان الناس ينظرون إليَّ كما لو كنت قائم من القبر. والتقيت بطبيب كان حاضرًا في المستشفى يوم دخولي إياها. لم يكن مشاركًا بشكل مباشر في علاجي، لكنه رأى حالتي جيدًا عندما أدخلوني إلى غرفة الطوارئ في ذلك الصباح.

وسألني مُلخصًا السؤال الذي يشغل كل المجتمع الطبي بشأني: "كيف من الممكن أن تكون هنا؟! هل أنت أخو إبين التوأم، أم ماذا؟"

فابتسمت، ومددت يدي، وصافحته بقوة، ليعرف أنني موجود حقًا.

وبالرغم من أنه كان يمزح بالطبع بشأن وجود أخ توأم لي، إلا أن هذا كان يشير إلى أمرًا هامًا. لقد كنت بالفعل لا أزال شخصين، وإن كنت سأستخدم تجربتي لأساعد الآخرين كما أخبرت "إبين" ابني، فعليَّ أن أوفق ما بين تجربة عودتي من الموت وبين مفاهيمي العلمية وأربط هاذين الشخصين معًا.

ورجعت بذاكرتي إلى مكالمة تليفونية تلقيتها في صباح أحد الأيام منذ سنوات عديدة، من والدة أحد المرضى، كانت قد اتصلت بي بينما كنت أتفحص الخريطة الرقمية لورم كنت سأزيله لاحقًا في ذلك اليوم. سوف أطلق على السيدة اسم "سوزانا". كان زوج

christianlib.com

"سوزانا" الراحل، الذي سأدعوه "جورج"، أحد مرضاي وكان مصابًا بورم في المخ. وبالرغم من كل ما فعلناه لمساعدته، توفي خلال سنة ونصف من تشخيص المرض. والآن ابنة "سوزانا" تعاني من عدة نقاط سرطانية بالمخ نتيجة سرطان بالثدي. وكانت احتمالية أن تعيش لأكثر من شهور قليلة ضعيفة للغاية. لم يكن وقتًا ملائمًا لتلقي المكالمة، حيث كان عقلي منشغلاً تمامًا بالصورة الرقمية التي أمامي، وبتخطيط استراتيجية دقيقة لعملية إزالة الورم دون اتلاف أنسجة المخ المحيطة به. لكنني ظللت أتحدث مع "سوزانا" لأنني كنت أعلم أنها كانت تحاول أن تفكر في شيء، أي شيء، يساعدها على التكيف مع الوضع.

كنت أؤمن دائمًا بأنك إن كنت تحت عبء مرض قاتل، فلا بأس من أي محاولة قد تخفف وطأة الحقيقة. وإن حاولت أن تمنع مريض، أوشك على الموت، من محاولة التمسك بوهمٍ بسيط ليساعده على التعامل مع احتمالية موته، يكون الأمر كأنك تمنع عنه الأدوية المسكنة للألم. كان الحمل ثقيلاً على "سوزانا"، وكانت تستحق كل ثانية من الاهتمام تحتاجها مني.

قالت "سوزانا": "دكتور "إبين" لقد حلمت ابنتي حلمًا مذهلًا للغاية. جاء إليها والدها في الحلم. وأخبرها أن كل شيء سيكون على ما يُرام، وأنها ينبغي ألا تقلق بشأن الموت."

كنت أسمع مثل هذه الأشياء من مرضاي مرات لا تحصى، فالعقل يقوم بما يقدر عليه ليطمئن نفسه في موقف مؤلم لدرجة لا تُحتمل. فأخبرتها أنه بالفعل يبدو حلمًا رائعًا.

ثم قالت: "لكن المذهل حقًا، دكتور "إبين" هو ما كان يرتديه. قميص أصفر وقبعة!"

فجاوبتها بهدوء: "حسنًا يا "سوزانًا" لا أعتقد أن هناك نظام معين للملابس في السماء."

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فقالت "سوزانا": "لا ليس هذا هو الأمر. ثم أكملت قائلة: "في بداية علاقتنا، عندما كنا نتواعد، قدمت لـ"جورج" قميصًا أصفرًا . وكان يحب أن يرتديه مع قبعة كنت قد أهديتها له أيضًا. لكن القميص والقبعة كانا قد فُقدا عندما لم تصل حقائبنا في رحلة شهر العسل. وكان يعلم كم كنت أحبه أن يرتدي ذلك القميص وتلك القبعة، لكنه لم يشتري عوضًا عنهما."

فقلت: "بالتأكيد سمعت "كريستينا" العديد من القصص الجميلة عن ذلك القميص وتلك القبعة يا "سوزانا"، وعن ذكريات بداية علاقتكما..."

فضحكت قائلة: "كلا، هذا هو المذهل في الموضوع. كان ذلك سرنا الصغير. كنا نعلم كم سيبدو الأمر سخيفًا بالنسبة لأي أحد غيرنا. فلم نتحدث أبدًا عن ذلك القميص وتلك القبعة بعد أن فُقدا. ولم تسمع "كريستينا" كلمة واحدة منَّا بشأنهما. كانت كريستينا تخشى الموت، لكنها الآن تعلم أنه لا يوجد ما تخشاه، لا يوجد شيء على الإطلاق."

اكتشفت من قراءاتي، أن ما كانت "سوزانا" تخبرني به هو أحد أشكال الأحلام التثبيتية للإيمان التي تحدث كثيرًا. لكنني لم أكن قد مررت بتجربة عودتي من الموت بعد، عندما تلقيت هذه المكالمة التليفونية، وكنت واثقًا تمامًا في ذلك الوقت أن ما كانت "سوزانا" تخبرني به هو مجرد رغبة خيالية ناتجة عن الحزن. فعلى مدار عملي، قمت بعلاج العديد من المرضى الذين مروا بتجارب غريبة أثناء غيبوبة أو أثناء الجراحة. وكلما قص لي أحد هؤلاء تجربة غريبة مثل تجربة "سوزانا"، كنت عادةً أتعاطف معهم. فقد كنت واثقًا تمامًا أن تلك التجارب حدثت بالفعل، في عقولهم. فالعقل هو أكثر أعضاء جسمنا تعقيدًا وحساسية، كل ما عليك أن تلاعب به، أو أن تقلل من مقدار الأكسجين الذي يصله ولو لوحدات قليلة، فيُصاب صاحب هذا العقل بتغيير في حقيقته. أو بشكلٍ أدق، في اختباره الشخصي للواقع. وفي ظل وجود كل الأضرار الجسدية وكل العقاقير التي يتناولها شخص يعاني من إصابة أو مرض بالمخ، يكون من المضمون أنه، إن كان

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

للمريض أي ذكريات عندما يفيق، ستكون تلك الذكريات غريبة للغاية. فبعقلٍ تؤثر به عدوى بكتيرية قاتلة ومشوش من العقاقير، من الممكن أن يحدث أي شيء. أي شيء، فيما عدا التجربة التي تفوق الواقع التي مررت بها في غيبوبتي.

وقد أدركت وأنا مصدوم حيث كان ينبغي أن يكون الأمر واضحًا لي منذ البداية، أن "سوزانا" لم تكن تتصل بي في ذلك اليوم لأطمئنها. بل كانت في الحقيقة تحاول أن تطمئنني. لكنني لم أستطع أن أدرك ذلك. كنت أعتقد أنني أسدي لـ"سوزانا" معروفًا عندما تظاهرت، بينما كنت شارد الذهن، بأنني أصدق قصتها. لكنني لم أكن كذلك. وبالرجوع إلى تلك المحادثة التليفونية والكثيرين مثلها، أدركت كم أن الطريق أمامي طويل لأقنع زملائي الأطباء أن ما مررت به كان حقيقيًا.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٣١. ثلاث معسكرات

"من المؤكد أن التبسيط العلمي يُقلل، بشكل كبير، من شأن ومكانة العنصر الإنساني، باعتماده على المذهب المادي لتفسير العالم الروحي كله على أنه مجرد أنماط من النشاط العصبي. وينبغي أن يُصنف هذا الاعتقاد على أنه مجرد خرافات... كما يجب أن ندرك أننا كائنات روحية تعيش أرواحنا في العالم الروحي، كما أننا كائنات مادية لنا أجساد وعقول تعيش في العالم المادي."

السير جون إيكلس (١٩٠٣- ١٩٩٧)

عندما يتعلق الأمر بتجارب العودة من الموت، يوجد ثلاث معسكرات أساسية. يوجد المؤمنين بها، سواء ممن اختبروا بأنفسهم تجربة عودة من الموت أو ممن وجدوا سهولة في قبول حقيقة هذه التجربة. وهناك بالطبع، المخلصين في عدم إيمانهم بها (مثل شخصي القديم). وهؤلاء لا يصنفون أنفسهم بشكل عام كغير مؤمنين. بل هم ببساطة يؤمنون بأن العقل هو من يولد الوعي ويرون أن فكرة وجود عقل فيما وراء الجسد هي فكرة مجنونة.

ثم هناك المجموعة الوسطى. وبها كل أنواع الناس الذين سمعوا عن تجارب العودة من الموت، سواء من خلال القراءة عنها، أو لأنها شائعة بدرجة كبيرة، أو لأن أحد أصدقائهم أو أقاربهم مر بأحدها. هؤلاء الذين في الوسط هم اللذين من الممكن أن تساعدهم قصتي. فالخبر الذي تأتي به تجربة العودة من الموت يُغيِّر الحياة. لكن عندما يقوم هؤلاء بسؤال طبيب أو عالم، فهؤلاء هم الفهماء في مجتمعنا فيما يختص بما هو حقيقي وما ليس كذلك، يتم إخبارهم، بلطف لكن بحزم، أن تجارب العودة من الموت هي أوهام، ناتجة عن عقل يصارع ليتمسك بالحياة، ليس أكثر من ذلك.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لكنني كطبيب وفي الوقت نفسه مررت بهذه التجربة، أستطيع أن أنقل القصة بصورة مختلفة. وكلما فكرت أكثر في الموضوع، كلما ازداد شعوري أنه من واجبي أن أفعل ذلك.

فقمت واحدة فواحدة بمراجعة الاحتمالات التي كنت أعلم أن زملائي، كما كنت سأفعل أنا بفكري القديم، سوف يقدمونها "لتفسير" ما حدث لي.

هل كانت تجربتي تصرف فطري لساق المخ بشكل متطور لتخفيف الألم القاتل والمعاناة، ربما كبقايا لاستراتيجية "التظاهر بالموت" التي تستخدمها الثدييات الأدنى؟ لكنني تجاهلت ذلك الاقتراح. فببساطة من المستحيل أن تكون تجربتي، بكل ما فيها من مستويات بصرية وسمعية معقدة للغاية، وبالمعنى الرفيع المحسوس منها، هي من تأليف الجزء الخاص بالزواحف في عقلي مثلاً.

هل كانت استعادة مشوهة لذكريات من الأجزاء العميقة في جهازي الحوفي، ذاك الجزء من العقل الذي يغذي الإدراك الانفعالي؟ لكن لا يستطيع الجهاز الحوفي إنتاج صور بالنقاء والمنطقية التي رأيتها بدون قشرة دماغية فعالة.

إذاً هل من الممكن أن تكون تجربتي نوعًا من الرؤى الناتجة عن بعض أو العديد من العقاقير المخدرة التي كنت أتناولها؟ لكن مرة أخرى أكرر، كل تلك العقاقير تعمل مع مستقبلات عصبية في القشرة الخارجية للمخ. وبدون عمل القشرة الخارجية، لا يوجد مادة خام للعقاقير لترسم عليه أوهامها.

ماذا بشأن حالة التسلل REM؟ وهو اسم مرتبط بحركة العين السريعة أو نوم حركة العين السريعة، المرحلة التي تحدث فيها الأحلام. و فيها تتفاعل الناقلات العصبية الطبيعية مثل serotonin (المادة العصبية الفعالة في الدماغ) مع مستقبلات عصبية في القشرة الخارجية للمخ. لكن للأسف مرة أخرى، يتطلب حدوث تسلل REM وجود قشرة خارجية فعالة للمخ، وهو ما لم أكن أملكه.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ثم هناك الظاهرة الافتراضية المعروفة باسم "DMT". في هذه الحالة، تقوم الغدة الصنوبرية، كرد فعل للضغط الناجم عن تهديد ملحوظ للمخ، بإنتاج مادة تُدعى DMT. وهذه المادة تشبه في تركيبها مادة عصبية فعالة في الدماغ (serotonin) وتستطيع أن تتسبب في حالة شديدة جدًا من التخدير. لم يكن لي خبرة شخصية مع DMT، ومازالت ليس لدي خبرة به، لكن لا جدال لي مع من يقولون أنه من الممكن أن ينتج عنها تجربة مخدرة قوية للغاية؛ وربما تجربة ذات معاني حقيقية تتفق مع فهمنا لحقيقة الوعي، والواقع.

لكن، تظل حقيقة أن القسم من المخ الذي تؤثر فيه DMT (وهو القشرة الخارجية) كان، في حالتي، غير متاح ليتأثر. لذلك فمن جهة تفسير ما حدث لي، تعجز تمامًا نظرية تفريغ DMT عن تفسيره مثلها مثل المقترحات الرئيسية الأخرى لتفسير تجربتي، وجميعها لنفس السبب الرئيسي. تؤثر الهلاوس على القشرة الخارجية للمخ، لكن لم تكن القشرة الخارجية لمخي متاحة أيضًا لهذا التأثُّر.

النظرية الأخيرة التي فكرت بها كانت "ظاهرة إعادة التشغيل". وهذه تفسر تجربتي على أنها تجميع لبقايا ذكريات وأفكار غير مترابطة من قبل أن تتوقف القشرة الخارجية لعقلي تمامًا عن العمل. وكجهاز كمبيوتر يبدأ العمل من جديد محتفظًا بما استطاع الاحتفاظ به بعد انهيار شامل في النظام، يقوم عقلي بتجميع تجربتي من هذه الأجزاء الصغيرة الباقية بأفضل طريقة ممكنة. قد يحدث هذا عند إعادة تشغيل القشرة الخارجية للمخ لتعود إلى الوعي بعد توقف طويل في النظام، كما في حالة الالتهاب السحائي المنتشر في عقلي. لكن ليس من المرجح أن هذا هو ما حدث نظرًا لتعقيد وتفاعلية ذكرياتي ذات التفاصيل الدقيقة. ولأنني اختبرت طبيعة غير خطية للزمن في العالم الروحي، جعلني ذلك أستطيع أن أفهم الآن لماذا قد تبدو العديد من الكتابات عن البُعد الروحي مشوهة أو غير منطقية من وجهة نظرنا الأرضية. ففي العوالم التي فوق عالمنا هذا، لا يكون الزمن كما هو هنا. ففي تلك العوالم ليس بالضرورة أن يكون هناك شيء تلو

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الآخر. بل من الممكن أن تبدو لحظة واحدة كحياة كاملة، و قد تبدو حياة أو عدة حيوات كلحيظة. لكن بالرغم من أن الزمن هناك في العوالم الأخرى ليس طبيعيًا بحسب مفهومنا، إلا أن هذا لا يعني أنه مختلط، فذكرياتي عن الوقت الذي أمضيته في الغيبوبة لم يكن كذلك. وكانت مرساتي الأرضية في تجربتي، فيما يتعلق بالزمن، هي تفاعلي مع "سوزان رينتجز" عندما تواصلت معي في ليلتي الرابعة والخامسة، وكذلك ظهور الستة وجوه، قرب نهاية رحلتي. وأي ظهور آخر لترابط زمني بين الأحداث على الأرض وبين رحلتي فيما وراء الأرض، من الممكن أن تقول أنه حدسي بحت!

كلما عرفت المزيد عن حالتي، وكلما سعيت، مستخدمًا الأدب العلمي المعاصر، لتفسير ما حدث، كلما زاد عجزي عن تفسيره بشكلٍ مذهل. كل شيء، كالوضوح الخارق لرؤيتي، ونقاء أفكاري كتيار نقي من المفاهيم، كان يتطلب عمل عقلي من الدرجة العُليا وليس الدُنيا. لكن لم تكن تلك العمليات العقلية العليا تعمل لديَّ.

وكلما قرأت أكثر عن التفسيرات العلمية لطبيعة تجارب العودة من الموت، كلما صُدمت أكثر من وثائقهم شديدة الشفافية. ومع ذلك أصابني الإحباط عندما علمت أن هذه هي نفس الوثائق التي كنت أشير إليها بشكل مبهم إن طلب مني أحد أن "أفسر" طبيعة تجارب العودة من الموت.

لكن ليس من المتوقع من غير الأطباء أن يعرفوا هذا. لو كان ما مررت به حدث لشخص، أي شخص آخر، لكان الأمر رائع. لكن أنه حدث لي... حسنًا، لا أشعر بالارتياح عندما أقول أنه حدث "لسبب ما". فأنا أملك القدر الكافي من الطبيب القديم لأعرف كم يبدو ذلك كلامًا غريبًا بل ومبالغ فيه. لكن عندما أضيف إلى ذلك النسبة شبه المنعدمة لاحتمالية حدوث كل هذه التفاصيل، وخاصةً عندما أضع في الاعتبار كم كان من المفترض أن أصاب بالتهاب سحائي بالإيكولاي على وجه التحديد ليتوقف عمل القشرة الخارجية لمخي، وكذلك شفائي السريع والكامل مما يكاد يكون هلاك مؤكد، عليَّ أن آخذ بجدية احتمالية أن هذا حدث لسبب فعلاً.

coptic-books.blogspot.com

وقد زاد هذا من شعوري بالمسؤولية، حيث ينبغي أن أنقل تجربتي بشكل سليم.

لقد كنت دائمًا فخورًا بأنني أتابع أحدث ما كُتب في الطب في مجالي، وأن أساهم أيضًا بالكتابة عندما يكون لدي شيء ذو قيمة لأضيفه. فكوني انتقلت كالصاروخ من هذا العالم إلى عالم آخر كان خبرًا هامًا، خبرًا طبيًا حقيقيًا، والآن وقد عُدت، لم أكن سأعطي الموضوع أقل من حجمه. من وجهة النظر الطبية، شفائي الكامل كان أمرًا مستحيلاً، معجزة طبية. لكن القصة الحقيقية تكمن في المكان الذي كنت به، ولدي واجب ليس فقط كعالم بل وكشخص يحترم بشدة المنهج العلمي، بل وأيضًا كمعالج، أن أنقل هذه القصة للآخرين. هي قصة حقيقية تستطيع أن تعالج بقدر ما يستطيع الدواء. كانت "سوزانا" تعلم ذلك عندما اتصلت بي ذلك اليوم في مكتبي. وأنا نفسي قد اختبرت ما يشبه ذلك حينما وردني الرد من عائلتي بالميلاد. كان ما حدث لي خبرًا شافيًا، أيضًا. فأي نوع من المعالجين أكون لو لم أنقل هذه القصة للآخرين؟

بعد ما يقرب من العامين من إفاقتي من الغيبوبة، قمت بزيارة صديق مُقرب وزميل يرأس أحد أكثر أقسام الأعصاب الأكاديمية تقدمًا في العالم. كنت أعرف "جون" منذ عقود واعتبره إنسان رائع وعالم من الدرجة الأولى.

وأخبرت "جون" ببعض أجزاء من قصة رحلتي الروحية في الغيبوبة العميقة، فبدا مندهشًا تمامًا، ليس مندهشًا من الجنون الذي أصابني، بل كما لو كان فهم أخيرًا شيئًا كان يحيره لوقتٍ طويل.

واتضح أنه قبل ذلك بعام تقريبًا، كان والد "جون" في مراحل متأخرة من مرض لازمه لمدة خمس سنوات. كان عاجزًا، في حالة هياج شديد ويتألم لدرجة جعلته يتمنى الموت.

وقد توسل والد "جون" إليه وهو على فراش الموت قائلاً: "أرجوك، أعطني بعض الأقراص، أو أي شيء. لا أستطيع أن أستمر على هذا النحو."

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وفجأة صار والده أكثر قوة مما كان عليه على مدار سنتين، بينما كان يناقش بعض الملاحظات العميقة بشأن حياته وعائلتهم. ثم حول نظره وبدأ يتكلم إلى الهواء ويصغي له عند نهاية سريره. أدرك "جون" أن والده كان يتكلم مع والدته المتوفية، التي كانت قد توفيت قبل ذلك بخمس وستين سنة، بينما كان والد "جون" مازال في مرحلة المراهقة. وهو بالكاد كان يذكرها خلال حياة "جون"، لكنه الآن كان يحاورها حوارًا مبهجًا وحيويًا. لم يستطع "جون" أن يراها لكنه كان مقتنعًا تمامًا أن روحها كانت هناك، ترحب بروح والده في بيتها.

وبعد ذلك بدقائق قليلة، تحول والد "جون" إليه مرة أخرى، بنظرة مختلفة تمامًا في عينيه. كان يبتسم، وكان واضحًا للغاية أنه يشعر بالسلام، بدرجة لا يتذكر "جون" أنه قد رآه عليها أبدًا من قبل.

فوجد "جون" نفسه يقول: "اخلد إلى النوم يا والدي، لا بأس لا تتمسك بالحياة."

وهذا بالضبط ما فعله والده.. أغلق عينيه، ودخل في النوم وعلى وجهه نظرة فيها سلام كامل. وبعد ذلك بوقت قصير توفي.

شعر "جون" أن اللقاء بين والده و جدته الراحلة كان واقعيًا جدًا، لكنه لم يعرف ماذا يفعل بذلك لأنه، كطبيب، كان يعرف أن مثل هذه الأمور كانت "مستحيلة". وقد رأى الكثيرون غيره هذه الحالة من صفاء الذهن المذهل الذي عادةً ما يحدث لكبار السن المصابين بالخرف قبل وفاتهم مباشرةً، كما رأى "جون" في والده، وهي ظاهرة معروفة باسم "المحطة النهائية للوضوح". لكن ليس هناك تفسير علمي عصبي لذلك. ويبدو أن سماعه لقصتي منحه رخصة كان مشتاقًا للحصول عليها، وهي رخصة ليصدق ما قد رآه بعينيه، ليعرف تلك الحقيقة العميقة المطمئنة، أن أرواحنا الخالدة أكثر واقعية من أي شيء ندركه في هذا العالم المادي، ولها ارتباط إلهي بالحب غير المحدود للخالق.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٣٢. زيارة للكنيسة

"يوجد طريقتان فقط لتحيا حياتك.
واحدة أن تحيا وكأنه لا يوجد
معجزات. والأخرى أن تحيا وكأن كل
شيء معجزة."
ألبرت أينشتاين (١٨٧٩- ١٩٥٥)

لم أدخل الكنيسة من جديد حتى ديسمبر ٢٠٠٨، عندما أقنعتني "هولي" بحضور الصلاة في الأحد الثاني من "المجيء" (بداية السنة الطقسية الغربية). كنت ما أزال ضعيفًا، ونحيلاً وفاقدًا للتوازن بدرجةٍ ما. وجلست أنا و"هولي" في الصف الأول. كان "مايكل سوليفان" يرأس الصلاة في ذلك اليوم، فجاء إليَّ وسألني إن كنت أحب أن أضيء الشمعة الثانية في إكليل المجيء. لم أكن أرغب في ذلك، لكن شيئًا ما جعلني أقوم به على أية حال. فوقفت، ووضعت يدي على العمود النحاسي، ومشيت إلى مقدمة الكنيسة بسهولة غير متوقعة.

كانت ذكرياتي عن الوقت الذي أمضيته خارج الجسد ما زالت مجردة وجافة، وحيثما ألتفت، في هذا المكان الذي طالما فشل في أن يحرك مشاعري، أرى لوحة وأسمع موسيقى تعيد لي كل شيء مرة أخرى. فالنغمة الموسيقية النابضة العميقة لتسبحةٍ ما، تذكرني بالتعاسة القاسية لعالم منظور دودة الأرض. والنوافذ ذات الزجاج الملون برسوم السحب والملائكة، تعيد لذاكرتي الجمال السماوي للبوابة. ولوحة تصور المسيح وهو يكسر الخبز مع تلاميذه، تستدعي للذاكرة الشركة التي اختبرتها في المركز. فارتجفت عندما تذكرت نعمة المحبة غير المشروطة التي عرفتها هناك.
أخيرًا، فهمت ما هو معنى الديانة. أو على الأقل ماذا ينبغي أن يكون معناها. فأنا لا أؤمن بالله فقط ؛ بل أنا أعرف الله. وبينما كنت أعرج نحو المذبح لأتناول من الأسرار المقدسة، وجدت الدموع تنهمر على وجنتيَّ.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٣٣. لغز الوعي

"إن أردت أن تكون باحثًا فعليًا عن الحقيقة، لابد أن تشك في كل الأشياء إن أمكن، ولو مرة على الأقل في حياتك."
رينية ديكارت (١٥٩٦- ١٦٥٠)

استغرق الأمر ما يقرب من شهرين لأستعيد قدراتي الكاملة فيما يخص علم جراحة الأعصاب. بالتغاضي للحظة عن أنها معجزة من الأساس أن استعيدها، تظل حالتي سابقة طبية، لمجرد أن أستعيد أي شيء يقترب من قدراتي العقلية الكاملة، بعد أن كان المخ تحت تأثير هجوم عنيف طويل الأمد من بكتريا الإيكولاي سلبية الجرام، بمجرد أن استعدتها، ظللت أصارع مع حقيقة أن كل شيء تعلمته في أربعة عقود من الدراسة والعمل، فيما يختص بالعقل البشري، والكون، والواقع، يتعارض مع ما اختبرته أثناء تلك السبعة أيام في الغيبوبة. عندما دخلت في الغيبوبة، كنت طبيبًا علمانيًا أمضى كل سنوات عمله المهني في بعض أرفع مؤسسات البحث العلمي منزلةً في العالم، محاولاً أن يفهم الروابط بين العقل البشري والوعي. لم يكن الأمر أنني لم أكن أؤمن بالوعي. بل كنت ببساطة أكثر إدراكًا من معظم الناس لعدم احتمالية وجوده بشكل مستقل على الإطلاق!

في العشرينات من القرن الماضي، قام الفيزيائي "فيرنر هايزنبيرغ" وآخرين باكتشاف غريب للغاية لدرجة أن العالم يحاول استيعابه حتى هذه اللحظة. فعند مراقبة ظاهرة دون الذرية، وجدوا أنه من المستحيل أن تفصل تمامًا المراقب (أي العالم الذي يقوم بالتجربة) عن ما يتم مراقبته. وللأسف في عالمنا اليومي، من السهل أن نغفل عن هذه الحقيقة. نحن نرى الكون كمكان ممتلئ بأغراض منفصلة (مناضد وكراسي، بشر وكواكب) تتفاعل بين الحين والآخر مع بعضها البعض، ومع ذلك تظل منفصلة بشكل أساسي. لكن في المستوى دون الذري، يتضح أن هذا الكون ذو الأغراض المنفصلة كلهم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تامين. ففي العالم المتناهي الصغر، كل غرض في الكون المادي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكل غرض آخر. في الحقيقة، لا يوجد فعلاً "أغراض" في العالم على الإطلاق، بل فقط ذبذبات من الطاقة، وروابط.

كان ينبغي أن يكون معنى ذلك واضحًا، لكنه لم يكن كذلك للعديدين. كان من المستحيل تعقب الحقيقة المركزية للكون دون استخدام الوعي. وبعيدًا عن كونه منتج جانبي غير هام للعمليات الفيزيائية (كما كنت أعتقد قبل تجربتي)، فإن الوعي ليس واقعيًا فقط، بل هو في الحقيقة أكثر واقعية من باقي الوجود المادي، وفي الغالب هو أساسه كله. لكن لم تكن أي من تلك الاكتشافات متضمنة فعلاً في الصورة العلمية للواقع. يحاول العديد من العلماء أن يفعلوا ذلك، لكن بدءًا من الآن لا توجد نظرية موحدة لكل شيء تستطيع أن تجمع قوانين الميكانيكا الكمية مع قوانين النظرية النسبية بطريقة تبدأ في إنشاء الوعي.

تتركب كل الأغراض في الكون المادي من ذرات. والذرات، بدورها، تتركب من بروتونات، وإلكترونات، ونيوترونات. تلك بدورها عبارة عن (كما اكتشف الفيزيائيون في السنوات الأولى من القرن العشرين) جزيئات. والجزيئات تتركب من ... حسنًا، بصراحة الفيزيائيون أنفسهم لا يعرفون فعلاً. لكن الأمر الذي نعرفه عن الجزيئات هو أن كل واحدة منها مرتبطة بكل جزيء آخر في الكون. فجميعهم متشابكين لأعمق مستوى.

قبل تجربتي فيما وراء هذا العالم، كنت أدرك بشكلٍ عام كل تلك الأفكار العلمية الحديثة، لكنها كانت بعيدة ونائية. في العالم الذي كنت أعيش وأتحرك فيه، عالم السيارات والمنازل ومنضدة العمليات والمرضى الذين يتحسنون أو لاً اعتمادًا بشكل كبير على مدى نجاحي في إجراء الجراحات لهم، تم تنقية وإبعاد هذه الحقائق الخاصة بالفيزياء دون الذرية. قد تكون حقيقية، لكنها لا تخص واقعي اليومي.

christianlib.com

لكن عندما تركت جسدي المادي، اختبرت تلك الحقائق بشكل مباشر. في الحقيقة، أشعر بثقة عندما أقول أنني، بالرغم من عدم معرفتي لمعنى كلمة "علم" في ذلك الوقت، إلا أنني بينما كنت في البوابة وفي المركز، كنت في الحقيقة "أدرس علمًا". علم يعتمد على أصدق وأكثر الأدوات التي نملكها تعقيدًا للبحث العلمي، وهو الوعي نفسه.

كلما تعمقت أكثر، كلما ازدادت قناعتي بأن اكتشافي لم يكن شيقًا أو مهولاً فقط. بل كان علميًا أيضًا. ويتوقف الأمر على من تتحدث معه، فإما يكون الوعي أعظم لغز يواجه البحث العلمي، أو لا يمثل مشكلة على الإطلاق. الأمر المفاجئ هو أن عدد كبير من العلماء يعتقدون أنه لا يمثل مشكلة. فبالنسبة للعديدين، وربما لمعظم العلماء، لا يستحق الوعي أن ينشغلوا به حقًا لأنه مجرد منتج جانبي للعمليات الفيزيائية. بل ويتمادى العديد من العلماء، ويقولون أن الوعي ليس فقط ظاهرة ثانوية، بل هو بالإضافة إلى ذلك، ليس واقعيًا.

ومع ذلك فإن العديد من كبار علماء علم أعصاب الوعي وفلسفة العقل، يختلفون في الرأي. و أدركوا على مدار العقود القليلة الماضية، أن الوعي يمثل مشكلة صعبة. ومع أن الفكرة كانت تحاول الاندماج لعقود، إلا أن " ديفيد تشالمرز " هو من قام بتعريف تلك المشكلة في كتابه الناجح عام ١٩٩٦، "العقل الواعي". تكمن الصعوبة في تفسير وجود تجربة واعية ومن الممكن إيجازها في الأسئلة التالية:

كيف ينشأ الوعي كنتيجة لعمل العقل البشري؟

كيف يرتبط بالسلوك المصاحب له؟

كيف يرتبط العالم المُدرَك بالعالم الواقعي؟

وهذه مشكلة يصعب حلها لدرجة أن بعض المفكرين قالوا أن الإجابة تكمن بعيدًا تمامًا عن "العلم". بل وأنها تكمن خارج حدود العلم المعروف حاليًا. ولا يقلل ذلك على

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الإطلاق من ظاهرة الوعي، بل في الحقيقة، في هذا إشارة إلى دورها العميق المتعذر الفهم في الكون.

إن هيمنة المنهج العلمي المؤسس على العالم المادي فقط على مدار السنوات الأربعمائة الماضية تمثل مشكلة كبيرة، فلقد فقدنا إدراكنا للغز عميق في مركز الوجود، وهو وعينا. لقد كان (تحت مسميات مختلفة ومُعبر عنه بوجهات نظر عالمية مختلفة) شيئًا معروفًا جيدًا، وتتمسك به الديانات قبل- المعاصرة، لكنه فُقد في ثقافتنا الغربية العلمانية حيث صرنا مفتونين بشكل متزايد بقدرة العلم الحديث والتكنولوجيا.

وقد دفع العالم مقابل كل نجاحات الحضارة الغربية، ثمنًا غاليًا من أكثر مكونات الوجود أهمية، روحنا الإنسانية. ويكفينا سوءًا الجانب المظلم للتكنولوجيا المتقدمة، من حروب حديثة، وقتل وانتحار بلا تفكير، واتلاف للممتلكات العامة، والافساد البيئي، والتغير الهائل بالمناخ، واستقطاب الموارد الاقتصادية. والأسوأ من ذلك بكثير، هو تركيزنا على التقدم السريع في العلم والتكنولوجيا مما ترك العديد منا محرومين نسبيًا في عالم المعنى والسعادة، ومعرفة كيف أن حياتنا تلائم الخطة العُظمى للوجود إلى الأبد. وقد ثبت أنه من الصعب الإجابة على أسئلة تتعلق بالروح والحياة الأخرى، والله والسماء، من خلال الطرق العلمية التقليدية، التي تُرجح عدم وجود هذه الأمور. كذلك ظاهرة الوعي الممتد، مثل الرؤية عن بُعد، الإدراك الفائق لنطاق الإدراك الحسي العادي، التحريك نفسي المنشأ (القدرة على التحريك عن بُعد)، الاستبصار، التخاطر، ومعرفة الأمور قبل حدوثها، يصعب فهمها عن طريق الأبحاث العلمية المألوفة. قبل غيبوبتي، كنت أشك في حقيقة تلك الأمور، بشكل أساسي لأنني لم أختبرها أبدًا على مستوى عميق، ولأنني لم أستطع أن أفسرهم بسهولة بنظرتي العلمية المبسطة للعالم.

مثل العديدين غيري من المتشككين العلميين، رفضت حتى أن أستعرض المعطيات المتعلقة بالأسئلة الخاصة بتلك الظاهرة. وحكمت مسبقًا على تلك المعطيات، ومن يقدمونها، لأن تفكيري المحدود فشل في تقديم ولو تصور مشوش عن كيفية حدوث

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تلك الظواهر. هؤلاء الذين يؤكدون أنه لا يوجد دليل على ظاهرة الوعي الممتد، مع أنه في المقابل يوجد دليل مبهر على ذلك، اختاروا أن يكونوا جهلاء. ويعتقدون أنهم يعرفون الحقيقة دون الحاجة إلى النظر إلى كل الوقائع.

ولمن ما زالوا عالقين في فخ التشكيك العلمي، أنصحهم بكتاب "عقل يتعذر اختزاله"، نحو علم نفس للقرن الحادي والعشرين، الذي تم نشره عام ٢٠٠٧. والذي يمثل جيدًا الدليل على الوعي خارج الجسد في هذا التحليل العلمي الحاسم. "عقل يتعذر اختزاله" هو عمل فني يمثل نقطة تحول، وهو من عمل فريق رفيع المستوى، من قسم الدراسات الإدراكية، بجامعة فيرجينيا. يقدم المؤلفين استعراضًا شاملاً للمعطيات المتعلقة بالموضوع، والنتيجة حتمية، تلك الظاهرة حقيقية، وينبغي أن نحاول أن نفهم طبيعتها إن أردنا أن نفهم حقيقة وجودنا.

لقد تم تضليلنا لنعتقد أن نظرة العالم العلمي تقترب بسرعة من التوصل إلى نظرية لكل شيء "TOE" التي لن تترك مساحة كبيرة لأرواحنا، أو نفوسنا، أو للسماء، والله. ورحلتي العميقة في الغيبوبة، خارج هذا العالم المادي المتدني وإلى أعلى مكان حيث مسكن الخالق كلي القدرة، كشفت الهوة الضخمة المذهلة بين معرفتنا البشرية وبين عالم الله المثير للخشوع.

ندرك جميعنا الوعي أكثر من أي شيء آخر، ومع ذلك نفهم عن باقي الكون أكثر مما نفهم عن طريقة عمل الوعي. وهو قريب جدًا من الوطن (المركز) لدرجة تجعله يفوق فهمنا دائمًا. لا يوجد شيء بفيزياء العالم المادي ، وبشكلٍ خاص بشأن التركيب المعقد للمخ، يعطي ولو فكرة مبسطة عن طريقة عمل الوعي.

في الحقيقة، إن أعظم إشارة إلى حقيقة العالم الروحي هو هذا اللغز العميق لوجودنا الواعي. وهذا اكتشاف أكثر غموضًا من أن يستطيع الفيزيائيين أو علماء الأعصاب أن يتعاملوا معه، ومن ضمن فشلهم هذا، فشلهم في فهم العلاقة الوثيقة بين الوعي والفيزياء الكمية، وبالتالي الواقع المادي.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لكي ندرس الكون على مستوى عميق فعلاً، ينبغي أن نعترف بالدور الرئيسي للوعي في رسم الواقع. وقد صدمت التجارب في الفيزياء الكمية هؤلاء المؤسسين اللامعين للمجال، فلجأ العديد منهم، مثل: فيرنر هايزنبيرغ، فولفغانغ باولي، نيلز بور، إرفين شرودنغر، سير جيمس جينس، لجأوا إلى الفكر العالمي الروحي بحثًا عن أجوبة. وأدركوا أنه من المستحيل فصل المُجرِب عن التجربة، وشرح الواقع دون الوعي.

وكان ما اكتشفته فيما وراء هذا العالم هو الضخامة والتعقيد المذهلين للكون، وكيف أن الوعي هو أساس كل ما هو موجود. كنت مرتبطًا تمامًا بالعالم الذي كنت أتحرك فيه، لدرجة أنه لم يكن هناك تمييز حقيقي بيني وبينه.

ولو كان عليَّ أن أختصر كل هذا، سأقول أولاً، أن الكون أكبر بكثير مما يبدو عليه عندما ننظر إلى مكوناته المنظورة بشكل مباشر. في الحقيقة لا يُعد هذا اكتشافًا جديدًا، حيث يعترف العلم التقليدي بأن ٩٦ بالمائة من الكون يتكون من "مادة معتمة وطاقة." ما هي تلك المكونات المعتمة؟ لا يعرف أحد حتى الآن. لكن ما جعل تجربتي متميزة كان هو الفورية الصادمة التي اختبرت بها الدور الأساسي للوعي، أو الروح. لم تكن أمور نظرية عندما تعلمتها هناك بالأعلى، بل كانت حقيقة، عارمة ومباشرة كعاصفة من رياح قطبية في الوجه.

ثانيًا: نحن- كل واحدٍ منا- مرتبطين بطريقة معقدة يتعذر حلها مع الكون الأكبر. إنه بيتنا الحقيقي، والاعتقاد أن هذا العالم المادي هو ما يهم، يكون كأن الإنسان يحبس نفسه في خزانة صغيرة ويتصور أنه لا يوجد شيء آخر خارجها.

ثالثًا: قوة "الإيمان" الضرورية لتسهيل مبدأ "العقل قبل المادة." كنت عادةً محتارًا كطالب طب بشأن القوة المُحيرة لتأثير العقار المزيف- كان على الدراسات الطبية التغلب على الفائدة التي تصل إلى الثلاثين بالمائة أو ما يقرب من ذلك والتي كانت ترجع إلى إيمان المريض أنه يتلقى عقار سيساعده، حتى ولو كان من مادة غير فعالة. لكن عوضًا عن رؤية القوة الكامنة في الإيمان، وكيف تؤثر على صحتنا، نظر العاملين بالمجال

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

الطبي إلى نصف الكوب الفارغ، وكيف أن تأثير العقار المزيف كان عقبة في شرح العلاج.

في قلب غموض الميكانيكا الكمية يقع زيف مفهومنا عن الموقع في المكان والزمان. باقي الكون، أي المساحة الأكبر- ليس بعيدًا حقًا عنّا في الفضاء. نعم، يبدو الفضاء المادي حقيقيًا، لكنه أيضًا محدودًا. يبدو الطول والارتفاع الكلي للكون المادي كلا شيء بالمقارنة بالعالم الروحي الذي نشأ منه- عالم الوعي (الذي قد يشير إليه البعض على أنه "قوة الحياة".)

هذا الكون الآخر، الأكبر بكثير ليس "بعيدًا" على الإطلاق. في الحقيقة إنه هنا- هنا حيث أكتب هذه الجملة، وهنا حيث تقرأها أنت. ليس بعيدًا بحسب قوانين الفيزياء، لكنه ببساطة موجود على تردد مختلف. إنه هنا الآن، لكننا لا ندرك وجوده لأننا في الأغلب منغلقين عن تلك الترددات التي يظهر فيها. نحن نعيش في أبعاد المكان والزمان المألوفين، محاطين بالقيود الغريبة لأعضائنا الحسية ومقاييسنا الخاصة بالإدراك الحسي داخل التحليل الطيفي من الكمية دون الذرية وصعودًا عبر الكون كله. وتلك الأبعاد، بينما تكون مفيدة في العديد من الأشياء، إلا أنها تمنعنا من دخول الأبعاد الأخرى الموجودة كذلك.

كان اليونانيون القدماء قد اكتشفوا كل هذا منذ زمنٍ بعيد، وكل ما فعلته هو أنني أعدت اكتشافه بنفسي، الكون مكون بطريقة تجعلك لا تستطيع أن تفهم أي جزء من أبعاده ومستوياته العديدة، إلا بعد أن تصير جزءًا من ذلك البُعد. أو لنكون أكثر دقة، عليك أن تنفتح على هوية هذا الجزء من الكون الذي تملكه فعلاً، لكن ربما لا تكون واعيًا له.

ليس للكون حدود، والله حاضر تمامًا في كل جزيء منه. الكثير، بل في الحقيقة، غالبية ما يقوله الناس عن الله والعوالم الروحية الأعلى يتضمن النزول بهم إلى مستوانا،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عوضًا عن رفع إدراكنا الحسي إلى مستواهم. فنحن نشوه بوصفنا العاجز، طبيعتهم المذهلة حقًا.

وبالرغم من عدم ادراكنا للبداية والنهاية، إلا أن الكون له بالفعل علامات ترقيم، الهدف منها إدخال الكائنات إلى الوجود والسماح لهم بالمشاركة في مجد الله. الانفجار العظيم الذي أنشأ كوننا هذا كان أحد "علامات الترقيم" المبدعة هذه. كانت نظرة OM من الخارج، تشمل كل خليقته وتتعدى حتى أعلى مجال بُعدي لرؤيتي. وهنا، أن أرى تعني أن أعرف. لم يكن هناك تمييز بين اختبار الشيء وفهمي له.

"كنت أعمى، والآن أبصر" اتخذت الآن معنى جديد حيث فهمت كم نحن على الأرض عميان عن الطبيعة الكاملة للكون الروحي- خاصةً من هم مثلما كنت، يؤمنون أن المادة هي مركز الواقع، وأن كل شيء آخر- الفكر، والوعي، والآراء، والمشاعر، والروح؛ هم من انتاجها.

هذا الاكتشاف ألهمني بشكل كبير، لأنه سمح لي أن أرى السمو المذهل للشركة وأن أفهم ما ينتظرنا جميعًا، عندما يترك كل واحد منا قيود أجسامنا وعقولنا المادية.

كنت دائمًا أعتقد أن الدعابة، والسخرية، والشفقة هي صفات طورناها نحن البشر لنتعامل مع هذا العالم المؤلم وغير العادل في معظم الأحيان. وهي بالفعل كذلك. لكن بالإضافة إلى كونها تعمل على مواساتنا، فإن هذه الصفات هي نوع من الإدراك الموجز، الخاطف، لكن الهام للغاية- لحقيقة أنه مهما كانت صراعاتنا ومعاناتنا في العالم الحاضر، فهي لا تستطيع أن تؤثر فعلاً في الكائنات الأعظم الخالدة التي هي نحن في الحقيقة. الضحك والسخرية هم في الحقيقة تذكرة أننا لسنا سجناء في هذا العالم، بل نرتحل عبره.

جانب آخر من البشرى السارة هو أنك لست مضطرًا أن تكاد تموت لتلقي نظرة خلف الحجاب- لكن عليك أن تعمل على الوصول لذلك. كبداية من الممكن أن تتعلم

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

عن ذلك العالم مما كُتب عنه، لكن في النهاية، ينبغي أن يدخل كلٍ منا عميقًا في وعيه، عبر الصلاة أو التأمل، ليصل إلى تلك الحقائق.

...

والتشبيه الذي استخدمه عادةً لشرح وعيي في ذلك المستوى الأعمق هو التشبيه ببيضة الدجاجة. فبينما كنت في المركز، وحتى عندما صرت واحدًا مع الفلك النوراني، وكنت هناك مع الله، شعرت بقوة أن الجانب الخلاق، الكائن منذ الأزل "المحرك الرئيسي"، الله، كان هو القشرة المحيطة لمحتوى البيضة، مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا، لكن دائمًا يفوق قدرة الاندماج التام مع المخلوق.

لم أسمع أبدًا صوت OM بشكل مباشر، ولا رأيت وجهه. كان الأمر كما لو أن OM تحدث إليَّ من خلال أفكار كانت تشبه حوائط من الموجات تتموج عبري، مُحركة كل شيء حولي ومُعلنة أن هناك بنية أعمق من الوجود- بنية نحن جميعًا جزء منها على الدوام، لكننا بشكل عام لسنا واعين لها.

بذلك كنت أتواصل بشكل مباشر مع الله؟ والتعبير عن الأمر بهذه الطريقة، يبدو مُبالغ فيه. لكن بينما كان يحدث، لم أشعر به بهذه الطريقة. بل كنت أشعر كما لو أنني كنت أفعل ما تستطيع كل روح أن تفعله عندما تترك أجسادها، وما نستطيع جميعنا أن نفعله الآن بطرق مختلفة من الصلاة أو التأمل العميق. والتواصل مع الله هو أكثر التجارب التي يمكن تخيُّلها روعة، لكن في الوقت نفسه هي أكثرهم طبيعية على الإطلاق، لأن الله موجودًا داخلنا طوال الأوقات. كلي العلم، قادر على كل شيء، شخصي- ويحبنا بلا شروط. ونحن مرتبطين كواحد من خلال صلتنا الإلهية بالله.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

٣٤. المعضلة الأخيرة

"يبدأ الإنسان في الحياة عندما يستطيع
الحياة خارج نفسه"
ألبرت أينشتاين (١٨٧٩- ١٩٥٥)

كان أينشتاين أحد رموزي العلمية منذ طفولتي والمقولة السابقة كانت دائمًا أحد أقواله المفضلة لدي. لكنني الآن فهمت ما تعنيه حقًا تلك الكلمات. فبقدر ما كان يبدو كلامي جنونيًا لكل من أُخبرهم بقصتي من زملائي العلماء- حيث كنت أستطيع أن أرى على وجوههم تعبيرات التوتر والذهول- إلا أنني كنت أعلم أنني أخبرهم بأمر ذو شرعية علمية حقيقية. وأنه يفتح الباب لعالم جديد تمامًا- بل وكون جديد تمامًا- للفهم العلمي. وهو أمر يدعو لاحترام الوعي كمكون أعظم ووحيد في كل الوجود.

لكن لم يقابلني أي من الأحداث المشتركة في تجارب الاقتراب من الموت الأخرى. فقد كان هناك مجموعة صغيرة من التجارب التي لم أَمر بها، وتجتمع كلها على حقيقة واحدة وهي أنني لم أتذكر هويتي الأرضية، بينما كنت خارج الجسد.

وبالرغم من أنه لا يوجد تجربتين متماثلتين للاقتراب من الموت، إلا أنني اكتشفت منذ بداية قراءاتي أن هناك قائمة ثابتة من السمات المميزة الموجودة في العديد منها. أحدها هو لقاء شخص أو أكثر من المتوفيين المعروفين لدى من مروا بتجربة الاقتراب من الموت في حياتهم. لكنني لم أقابل أي أحد ممن عرفتهم في الحياة. لكن ذلك الجزء لم يزعجني كثيرًا، حيث اكتشفت بالفعل أن نسياني لهويتي الأرضية سمح لي أن أتحرك أبعد مما يفعل العديد ممن مروا بتجربة الاقتراب من الموت. بالتأكيد لم يكن هناك ما أشتكي بشأنه في ذلك. لكن ما أزعجني هو أن هناك شخص واحد كنت أرغب بشدة في أن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

أقابله. كان والدي قد توفي قبل دخولي في الغيبوبة بأربع سنوات. وبما أنه كان يعلم كيف كنت أشعر أنني فشلت في أن أكون على مستوى مبادئه خلال سنوات الضياع التي عشتها، فلماذا لم يكن هناك ليخبرني أن الأمور على ما يرام؟ فلا شك، أنه عادةً ما تكون الطمأنينة هي ما يعتزم أصدقاء وعائلة من يمرون بتجارب الاقتراب من الموت الذين يستقبلونهم أن يقدموها لهم. وأنا كنت أتوق إلى تلك الطمأنينة. لكنني لم أحصل عليها.

بالطبع، لم يكن الأمر أنني لم أحصل على أي كلمات تبعث على الطمأنينة على الإطلاق. بل حصلت عليها من الفتاة على جناح الفراشة. لكن بقدر ما كانت الفتاة رائعة وملائكية، إلا أنها لم تكن شخصًا أعرفه. وبما أنني كنت أراها في كل مرة أدخل فيها ذلك الوادي الريفي على جناح الفراشة، كنت أتذكر وجهها جيدًا- بدرجة تجعلني أعلم أنني لم أقابلها في حياتي من قبل، على الأقل في حياتي على الأرض. وفي تجارب الاقتراب من الموت عادةً ما يكون لقاء صديق أو قريب معروف من الأرض هو ما يؤكد صدق التجربة لمن مروا بتلك التجارب.

حاول أنت.. كما فعلت أنا.. أن تضرب بها عرض الحائط، فتمثل هذه الحقيقة عنصر شك في أفكارك بشأن ما يعنيه كل هذا. لم يكن الأمر أنني شككت فيما حدث لي. كان ذلك مستحيلاً، فلو فعلت لشككت كذلك في زواجي من "هولي" أو في حبي لأولادي. لكن حقيقة أنني سافرت إلى العالم الآخر دون أن أقابل والدي، وقابلت رفيقتي الجميلة، التي لم أكن أعرفها، على جناح الفراشة، كان لا يزال يزعجني. نظرًا للطبيعة العاطفية القوية لعلاقتي بعائلتي، وشعوري بعدم الأهمية الناتج عن تخلي والديَّ عني، لماذا لم تُنقل لي هذه الرسالة الهامة للغاية، بأنني محبوب، ولن أُترك أبدًا، عن طريق شخص أعرفه؟ شخص مثل ... والدي؟

في الحقيقة، كنت في أعماقي وطوال حياتي أشعر أنني "تُركت"، بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها عائلتي لتداوي ذلك الشعور من خلال محبتهم لي. وقد كان والدي

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

ينصحني دائمًا ألا أنشغل كثيرًا بشأن ما حدث لي قبل أن يأخذاني من دار الأطفال. وكان يقول لي: "أنت لن تتذكر أي شيء حدث لك في ذلك الوقت على أية حال." وقد كان مُخطئًا في ذلك. فتجربة الاقتراب من الموت التي مررت بها أقنعتني أن هناك جزءًا سريًا من أنفسنا يسجل كل جانب من جوانب حياتنا الأرضية، وأن عملية التسجيل هذه تبدأ منذ نقطة البداية. وبذلك فإنني على مستوى من الرؤية المستقبلية السابق للكلمات علمت طوال حياتي أنني "تُركت"، وكنت لا أزال في أعماقي أصارع لأتصالح مع تلك الحقيقة.

وطالما ظل هذا التساؤل مطروحًا، سيظل هناك صوت ازدرائي. صوت يخبرني، بإلحاح وبشكل مخادع، أنه يوجد ما ينقص أو يشوب تجربة اقترابي من الموت لتكون كاملة ورائعة تمامًا.

بشكل أساسي، مازال جزء مني يشك في حقيقة تجربتي العميقة الواقعية المذهلة في الغيبوبة، وبالتالي في حقيقة وجود ذلك العالم ككل. وبسبب هذا الجزء الذي يخصني، ظل الأمر غير منطقيًا من المنظور العلمي. و بدأ ذلك الصوت الصغير لكن الملح للشك يهدد النظرة العالمية الجديدة التي كنت أبنيها ببطء.

coptic-books.blogspot.com

٣٥. الصورة

"العرفان بالجميل ليس هو فقط أعظم
الفضائل، بل هو أصل كل الفضائل"
شيشرون (١٠٦-٤٣ ق م)

بعد أن غادرت المستشفى بأربعة شهور، أرسلت لي أخيرًا أختي بالميلاد "كاثي" صورة لأختي بالميلاد "بيتسي". كنت بالأعلى في حجرة نومنا، حيث بدأت ملحمتي، عندما فتحت الظرف كبير الحجم وأخرجت منه صورة ملونة داخل إطار لأختي التي لم أعرفها أبدًا. كانت تقف، كما علمت لاحقًا، بالقرب من ممر إرساء معدية جزيرة بالبوا بالقرب من منزلها بجنوب كاليفورنيا، وفي الخلفية غروب جميل بالساحل الغربي. كان شعرها بني طويل ولها عينان زرقاوين عميقتين، وكانت ابتسامتها تشع محبة وحنان، وتبدو وكأنها تخترقني، فتجعل قلبي يفرح ويتألم في نفس الوقت.

وألحقت "كاثي" مع الصورة قصيدة. كتبها دافيد رومانو عام ١٩٩٣، وكان عنوانها "عندما يبدأ الغد بدوني"

عندما يبدأ الغد بدوني،
وأنا لست هناك لأرى،
إن أشرقت الشمس ووجدت عينيك
ممتلئة دموعًا من أجلي؛
أتمنى بشدة ألا تبكي
كما فعلت اليوم،
بينما تفكر في الأشياء الكثيرة،

christianlib.com

التي لم نقلها.
أعلم مقدار حبك لي،
بمقدار حبي لك،
وكل مرة تفكر في،
أعلم أنك ستفتقدني أيضًا؛
لكن عندما يبدأ الغد بدوني،
أرجوك حاول أن تفهم،
أن ملاكًا جاء ودعاني باسمي،
وأخذني من يدي،
وقال أن مكاني مُعد،
في السماء بعيدًا بالأعلى
وأنني ينبغي أن أترك خلفي
كل أحبابي الأعزاء.
لكن بينما التفت لأرحل،
سقطت دمعة من عيني
لأنني اعتقدت طوال حياتي،
أنني لم أرد أن أموت.
كان لدي الكثير لأحيا لأجله،
ومازال هناك الكثير لأفعله،
وكان يبدو مستحيلاً،
أن أتركك.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

فكرت في كل الماضي،
الأيام الحسنة والسيئة،
فكرت في كل الحب الذي تشاركناه،
وكل المرح الذي عشناه.
لو كنت أستطيع أن أحيا الأمس مرة أخرى
ولو لمدة قصيرة،
لقلت وداعًا وقبلتك
وربما رأيتك تبتسم.
لكنني أدركت تمامًا
أن ذلك لن يكون أبدًا،
فالفراغ والذكريات،
سيأخذان مكاني.
وعندما أفكر في أمور عالمية
قد يفوتني ما سيأتي غدًا،
فكرت بك، وعندما فعلت
امتلأ قلبي حزنًا.
لكن عندما عبرت بوابات السماء
شعرت أنني في بيتي
عندما نظر إليّ الله وابتسم لي،
من عرشه الذهبي العظيم،
وقال "هذه الأبدية،

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

وكل ما وعدتك به.

اليوم حياتك على الأرض هي ماضي

لكن هنا تبدأ من جديد.

لا أعدك بغد،

لكن اليوم سيدوم دائمًا،

وبما أن كل يوم هو نفس الشيء،

لا يوجد اشتياق للماضي.

لقد كنت مخلصًا للغاية،

واثقًا جدًا وصادقًا جدًا.

بالرغم من أن هناك أوقات

فعلت بعض الأمور التي كنت تعلم أنك لم يكن ينبغي أن تفعلها.

لكن غُفرت لك

والآن أخيرًا أنت حر.

إذاً ألن تأتي وتأخذ بيدي

وتشاركني حياتي؟"

فعندما يبدأ الغد بدوني،

لا تعتقد أننا بعيدين عن بعضنا،

فكل مرة تفكر في،

أنا هنا، في قلبك.

كانت عيناي تدمعان بينما أضع الصورة بحرص على المُزينة (التسريحة) وأنا لا أزال أحدق بها. كانت تبدو مألوفة بشكل غريب يصعب نسيانه. لكن كان من الطبيعي أن

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

تبدو كذلك. لقد كنا أقارب بالدم وكان بيننا حمض نووي DNA مشترك أكثر من أي أشخاص آخرين على الكوكب باستثناء إخوتي الاثنين الآخرين بالجسد. وسواء تقابلنا أبدًا أم لا، كنت أنا و"بيتسي" مرتبطين بشدة.

في الصباح التالي، كنت في غرفة نومنا أقرأ المزيد من كتاب "عن الحياة بعد الموت" لـ إليزابيث روس ووصلت إلى قصة عن فتاة عمرها اثني عشرة سنة ومرت بتجربة اقتراب من الموت، وفي البداية لم تخبر والديها بالأمر. لكن أخيرًا لم تستطع أن تحتفظ بالأمر لنفسها وكشفت السر لوالدها. أخبرته بشأن السفر إلى أراضي خضراء مذهلة ممتلئة محبة وجمال، وكيف أن أخيها استقبلها وطمأنها.

وقالت الفتاة لوالدها:"المشكلة الوحيدة هي أن ليس لي أخ."

ملأت الدموع عيني والدها. وأخبر الفتاة عن الأخ الذي كان لها فعلاً، لكنه توفي قبل ميلادها بثلاثة شهور فقط.

توقفت عن القراءة. وللحظة دخلت في حيز غريب مذهل، لست فعلاً أفكر ولا أفكر، فقط أستوعب شيئًا. فكرةٌ ما كانت على حافة وعيي لكنها لم تدخله تمامًا.

ثم ارتحلت عيناي نحو المنضدة، والصورة التي أرسلتها لي "كاثي". صورة أختي التي لم أعرفها يومًا. التي عرفتها فقط من خلال القصص التي روتها لي عائلتي بالميلاد وكيف كانت شخصية حنونة ومهتمة بالآخرين بشكل مذهل. شخصية كانوا يقولون عنها دائمًا أنها كانت في طيبتها كالملاك.

بدون الفستان الأزرق الفاتح ، وبدون النور السماوي للبوابة حولها بينما تجلس على جناح الفراشة الجميلة، لم يكن من السهل التعرف عليها في البداية. لكن ذلك كان طبيعيًا. فلقد رأيت طبيعتها السماوية – التي تحيا فوق وفيما وراء هذا العالم الأرضي، بكل ما فيه من مآسي وهموم.

coptic-books.blogspot.com

christianlib.com

لكن الآن لا يمكن أن أُخطئها، لا يمكن أن أُخطئ الابتسامة المُحبة، والنظرة الواثقة المطمئنة بلا حدود، والعينين الزرقاء اللامعتين.

كانت هي.

للحظة، التقى العالمان. عالمي هنا على الأرض، حيث كنت طبيبًا ووالدًا وزوجًا. وذلك العالم هناك، العالم المتسع لدرجة أنك بينما ترتحل فيه قد تفقد إحساسك بذاتك الأرضية وتصير جزء من الكون، من الظلمة المشبّعة بالله والمملوءة محبة.

في تلك اللحظة، في غرفة النوم بمنزلنا، في صباح ثلاثاء ممطر، التقى العالمان العلوي والسفلي. وجعلتني رؤية تلك الصورة أشعر كطفل في قصة خيالية يسافر إلى العالم الآخر ثم يعود، ليكتشف أن كل ذلك كان حلمًا- إلى أن ينظر في جيبه ويجد حفنة من التراب السحري اللامع من العوالم الأخرى.

أعلم أن هناك من سيحاولون التشكيك في مصداقية تجربتي في كل الأحوال، والعديدين الذين سيسقطونها من حساباتهم، لرفضهم تصديق أن ما مررت به قد يكون "علميًا" أو أنه أكثر من مجرد حلم جنوني.

لكنني أدرى منهم بالأمر. ومن أجل الذين هنا على الأرض والذين قابلتهم فيما وراء هذا العالم، أرى أنه من واجبي- كعالم وبالتالي باحث عن الحقيقة، وكطبيب مكرس لمساعدة الناس- أن أجعل من المعلوم لأكبر قدر ممكن من الناس أن ما مررت به حقيقي، وواقعي، وذو أهمية مذهلة. ليس لي فقط، بل لنا جميعًا.

لم تكن رحلتي عن المحبة فقط، بل كانت أيضًا عن طبيعتنا وكيف نحن جميعًا مرتبطين، أي عن معنى الوجود كله. لقد عرفت من أنا بينما كنت هناك بالأعلى، وعندما عُدت، أدركت أن آخر الخيوط المقطوعة بيني وبين حقيقة من أنا هنا بالأسفل قد تم اصلاحها.

coptic-books.blogspot.com

"أنت محبوب" كانت تلك الكلمات هي ما كنت أحتاج لسماعها كيتيم، وكطفل تم التخلي عنه. لكنها أيضًا ما يحتاج كل إنسان منَّا أن يسمعها في هذا العصر المادي، لأنه إن وضعنا في اعتبارنا طبيعتنا الحقيقية، ووطننا الحقيقي، والمكان الذي سنذهب إليه، نشعر جميعًا (بشكل خاطئ) أننا كالأيتام. وبدون أن نتذكر ترابطنا العظيم، والمحبة اللانهائية لخالقنا، سنظل دائمًا نشعر أننا تائهون هنا على الأرض.

لذلك، هأنذا ما زلت عالمًا، وما زلت طبيبًا، وبالتالي لي واجبين رئيسيين، هما أن أحترم الحقيقة وأساعد على الشفاء. ويعني ذلك أن أروي قصتي. القصة التي بمرور الوقت أتأكد أنها حدثت لهدف معين. ليس لأنني شخص مميز. بل لأن في حالتي حدث أمران في آنٍ واحد وفي تزامن، وهما معًا يهزمان آخر جهود العلم المختزل في إخبار العالم أنه لا يوجد سوى العالم المادي، وأن الوعي، أو الروح- روحك وروحي- ليست هي اللغز الأعظم والمركزي للكون.

christianlib.com

قصة عالم اختبر الحياة الأخرى

آلاف من الأشخاص سبق لهم اختبار الاقتراب من الموت وعادوا ليرووا اختباراتهم للعالم، ولكن العلماء عادة ما يجادلون باستحالة حدوث ذلك.

د. إبين ألكسندر، العالم وطبيب الأعصاب الشهير كان واحدًا من هولاء العلماء. فقد كان يؤمن بأن هذه الحالات ما هي إلا نتاج هلاوس ينتجها العقل متى خضع لضغوط شديدة.

ولكن د. إبين اجتاز اختبار شديد الخصوصية، إذ دخل إلى غيبوبة كاملة نتيجة إصابته بالتهاب سحائي بكتيري، بمعنى أن المناطق المفترض أنها مسئولة عن انتاج الأفكار والأحلام وحتى الهلاوس داخل المخ كانت متوقفة عن العمل تمامًا بسبب إصابة القشرة الخارجية للمخ. لكنه في هذه الأثناء شاهد ما وصفه هو نفسه بأنه أكثر أمر حقيقي وواقعي قد اختبره على الإطلاق، إذ اختبر الوجود في السماء وسط الكائنات الملائكية.

يقدم لنا د. إبين في هذا الكتاب تفاصيل ما شاهده واختبره مع شرح علمي وافي لحالته الطبية، كما أنه يناقش كل الاحتمالات الطبية الممكنة التي قد تفسر حالته ويبرهن هو علميًا على استحالتها، كل ذلك من خلال أسلوب قصصي شيق لا يتحلى به كثيرًا العلماء الذين دأبوا على الكتابة العلمية الجافة.

يُطلب من: مكتبة كنيسة مارجرجس - سبورتنج
تليفون : ٥٩١٩٨٨٨
فاكس : ٥٩٠٢٨٨٨

أسرة القديس
ديديموس الضرير
للدراسات الكنسية

قرش جنيه
١٥,٠٠

coptic-books.blogspot.com